



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
جامعة الشهيد حمّه لخضر - الوادي
معهد العلوم الإسلامية
قسم أصول الدين



نقد الاستشراق في الفكر العربي المعاصر

– مالك بن نبي وإدوارد سعيد أنموذجان –

مذكرة تخرّج تدخل ضمن متطلبات الحصول على شهادة الماستر

في العلوم الإسلامية – تخصص: العقيدة الإسلامية

المشرف:

د. بشير بوساحة

إعداد الطالبين:

– إبراهيم ريغي

– حسن سنوقة

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
د. عمارة نصيرة	أستاذ محاضر قسم ب	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي	رئيسا
د. بشير بوساحة	أستاذ محاضر قسم أ	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي	مشرفا ومقررا
د. زهير بن كتفي	أستاذ محاضر قسم أ	جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي	ممتحنا

السنة الجامعية: 1442-1443هـ/2021-2022م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

لك الحمد ربي على كثير فضلك وجميل عطائك وكرمك . مهما حمدناك فلن نستوفى حمدك .
والصلاة والسلام على النبي المصطفى والصفى المحبب سيدنا محمد ﷺ . أهدي هذا العمل إلى :
ذلك الحرف اللامتناهي من الحب والرقّة والحنان ، إلى الذين بحنانهم ارتويت ، وبدفئهم احتميت ، وبنورهم
اهتديت ، وبصرهم اقتديت ، إلى من يشتهي اللسان نطقهم ، وترفرق العين من وحشتهم ،
والذين تمتنوا رؤيتي وأنا في هذا المقام ، ولكن مشيئة الله فوق كل شيء ، إلى روح أبي العزيز ،
وأمي الحبيبة الغالية ، وأمي الحنونة الثانية ، أهدي هذا العمل ، سائلاً المولى العلي القدير أن يتعمد بهم
برحمته ، ووفير عفوه ، ولا أنس أمني الثالثة أطال الله في عمرها .

إلى ذرعي الذي بها احتميت ، وفي الحياة بها اقتديت ، والتي شقت لي بحر العلم والتعلم ، إلى من
منحتني القوة والعزيمة لمواصلة الدرب وكانت سبباً في مواصلة دراستي ، إلى من علمتني الصبر
والاجتهاد ، إلى من قاسمتني حلول الحياة ومرها ، إلى من تحبينني باسمتها وتميئني دعمتها ، زوجتي
الحبيبة ، ركيذة عمري ، ومسك بيتي ، أطال الله في أنفاسها .

إلى شموع البيت ، وأنوار الحياة ، إلى من حبههم يجري في عروقي ، ويلهج بذكراهم فؤادي ، إلى
أبنائي الأعزاء فلذات كبدي .

إلى من يذكرهم القلب قبل أن يكتب القلم ، إلى كل إخوتي وأخواتي وأصدقائي وأحبابي
وذويهم .

إلى أحسن من عرفني به القدر ، إلى من سرتُ معه ونحن نشق الطريق معاً نحو هذا العمل والابداع
والذي تمنى له التوفيق والنجاح ، إلى أخي الذي لم تلهه أمني : حسن سنوقة حفظه الله .

إلى من علمني أجدية الوجود والحياة والبحث عن الحقيقة واستنرتُ بفكرهم ، إلى أسانذتي الكرام .
إلى كل زملاء الدراسة متمنياً لهم التوفيق والنجاح . ومزيداً من التألق والابداع .

إلى كل من لم يُدرِكهم قلمي ، أقول لهم : بعدتم ولم يبعد عن القلب حبكم ، وأتم في الفؤاد حضور .

الطالب : إبراهيم بن صالح ريغي

الهدايا

أهدي ثمرة هذا الجهد إلى أول صاحب فضل عليّ بعد المولى عزوجل
أبي الغالي متعه الله بالصحة والعافية .

إلى الحصن الحنون الذي يدفعني دائماً للعلامة الكريمة حفظها
الله من كل مكروه وبلغ مقاصدها .

إلى داعمتي وسندي وشريكة حياتي زوجتي العزيزة وإلى
ريحائتي ابنتي وابني رعاهم الله بحفظه إلى إخوتي وأختي
وذويهم .

إلى كل عائلتي الكبيرة .

إلى من ساقه الله ليقاسمني الجهد في هذا العمل فكان خير خليل
وخير معين إلى كل زملاء الدراسة، والعمل والأهل والأصدقاء، والأصحاب
والأحباب .

حسن سنوقة بن أحمد

شكر وتقدير

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .
وقال النبي ﷺ: ﴿ مَنْ صَعَّ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافُوهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنْكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ ﴾ .
وقال بعض العارفين: ﴿ لَوْ عَلِمَ الشَّيْطَانُ أَنَّ طَرِيقًا تُوَصِّلُ إِلَى اللَّهِ أَفْضَلَ مِنَ الشُّكْرِ، لَوَقَّفَ فِيهَا، أَلَا تَرَاهُ قَالَ: ﴿ تَمُرًا لَأَيْتَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ .

ويقول الشاعر:

وَإِذَا خُصِصَتْ بِنِعْمَةٍ وَمَرْزُقَتْهَا *** مِنْ فَضْلِ رَبِّكَ مِنْتَ تَعْسَاهَا
فَإِغْبِ الزِّيَادَةَ فِي الَّذِي أُعْطِيَتْهُ *** وَتَمَامُ ذَلِكَ بِشُكْرِ مَنْ أَعْطَاهَا
إلى صاحب النميز والفكر المنير، والبصمة التي لا تزول عن وعر الأيام والسنين.
نقدم إلى السيد المشرف الدكتور:

بشير بساحة

بأجل عبارات الشكر والثناء على أعمالكم الجليلة، وتوجهاتكم السديدة التي انتفعنا لها أثناء دراستنا عندكم وكنا إلى جانبكم وحتى قيادتكم. لقد أحسنتم التدريس وأجدتم النوجيه والشطير وبن عنبر في القيادة، فكنتم خلق وشهادة الجمع رمز العمل الدؤوب والتنسيق الحكم والنناج المنمزة. لكم منا كل آيات النجاة والوقار والإجلال والوقار. إليكم يا من كنتم مصدر الإلهام والنجاح والامرتقا وكنتم خير معين في مسيرة الإشراف، فكنتم الأمل الوضاء والرمز في العطاء. شكرًا لكم يا عطر التريفة والتعليم الفواح، يا نبع الاجتهاد وإشراقة الإصلاح. شكرًا لكم يا منحة الخالق في هاتة الواحات، شكرًا لأنكم كنتم السند، فطاول النجاح بكم عنان السماء ورفعها بفضلكم سمعة وصينا إلى أعلى العلا، دُمر عونا لا يخفت بريقته جناه هذا الوطن، وهاتة الواحة الغناء الذي يترقب إضامها بروح ملهمة. حية من قلوبنا إلى قلبك الذي نبض مع وفه الجميل، وإلى ذكائك المنوقد الذي أهرنا بأفكاره النيرة. لكم منا سيدي، أركى النحيات لتوسكم الآية وبنسما تكم الفريدة. لكم منا الشكر والعرفان والتقدير والاحترام ومهما أوتينا من البلاغة علما ورفعة، فلن نوفي حق شكركم حيث تسابق الحروف وتسامح العبارات للتعبير عن مدى الامثان لدعمكم ومساندتكم.

إليكم يا من بذلتهم بالعطاء فكان عطاؤكم مشكوراً، وإليكم يا من سعينم للبناء والترقية فكان سعيكم معظماً.

الطالبان: إبراهيم ريغي . حسن سنوقة

الملخص

الملخص:

تناولنا في هذا البحث المقدم لنيل شهادة الماستر في العلوم الإسلامية تخصص العقيدة الإسلامية، تحت عنوان: "نقد الاستشراق في الفكر العربي المعاصر: مالك بن نبي وإدوارد سعيد أنموذجان"، على تفصيل هو كالتالي:

تناولنا تعريف الاستشراق وظروف نشأته، وأهداف الاستشراق، ووسائله، ونشاطاته، كما تعرضنا لحياة مالك بن نبي، وموقفه من الاستشراق نقدًا وتقويمًا، كذلك تعرضنا لحياة إدوارد سعيد، وموقفه من الاستشراق نقدًا وتقويمًا، وتحليلًا، ثم مقارنة بين نقد مالك بن نبي للاستشراق وبين نقد إدوارد سعيد من حيث الدواعي والمستجدّ والأثر الذي تركاه في الساحة العلمية والنقدية والأدبية، مع ذكر أوجه الاتفاق، والاختلاف، وما قيل عن نقدهما. وخلصنا من خلال هذا العمل إلى جديد أفكار نقد مالك بن نبي وإدوارد سعيد الذي ميّزهم عن غيرهم ممن نقد الاستشراق وأثر ذلك في الوطن العربي والإسلامي والعالم كافة.

الكلمات المفتاحية:

الاستشراق، المستشرقين، الشرق، الخطاب الاستشراقي، الاسلام والغرب، القابلية للاستعمار، الامبريالية، الكولونيالية، القراءة الطباقية، السلطة والمعرفة.

Summary:

In this research submitted to obtain a master's degree in Islamic sciences specializing in Islamic theology, we dealt with the title: "Critique of Orientalism in Contemporary Arab Thought: Malik bin Nabi and Edward Said are two models", in detail as follows:

We dealt with the definition of Orientalism and the circumstances of its inception, its perspectives, means, and activities of Orientalism, as well as the life of Malik bin Nabi and his position on Orientalism in criticism and evaluation. Edward Said in terms of the reasons and developments and the impact they left in the scientific, critical and literary arena, with mentioning the points of agreement and disagreement, and what was said about their criticism. And we concluded through this work to the new ideas of criticism of Malik bin Nabi and Edward Said, who distinguished them from others who criticized Orientalism and its impact on the Arab and Islamic world and the world at large.

key words:

Orientalism, Orientalists, the Orient, Orientalist discourse, Islam and the West, colonialism, imperialism, colonialism, class reading, power and knowledge.

مقدمة

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وبعد:

لقد عانى العالم العربي من عدّة ويلات عبر الزمن فبالإضافة إلى الاستعمار الذي عاد على بلادنا العربية بالتدمير والإفساد، عاش كذلك العالم العربي غزواً فكرياً قاد لواءه المستشرقون، والذي يتنوع ويتلوّن حسب الزمان والمكان، وأخطر أنواع هذا الغزو الفكري والثقافي: حركة الاستشراق (Orientalism)، هذه الحركة التي قامت بأبشع الحملات الفكرية والثقافية على العالم العربي والإسلامي بدلاً من الحملات العسكرية، وتعمل في أوساط العلماء والباحثين، والمتقنين والمفكرين، وقد مؤّلت -وما زالت تمّول- من الحكومات الغربية والكنائس المسيحية، ومن الصهيونية والشيوعية، وغيرها ممن في قلوبهم الحقد والغلّ للشعوب الشرقية عامة العربية والإسلامية خاصة.

فأدركت البلدان العربية من خلال تجربتها الطويلة مع الاستعمار بأن إيديولوجية هذا الأخير لا تقوم إلا على المغالطة والتضليل، فهي تعمل جاهدة على إبقاء شعوب المستعمرات خارج دائرة التطور الحضاري، فلما تبين ذلك، اندلع الصراع الفكري والثقافي بين الشرق والغرب، فكما أن هناك مختصون في الذرة والإلكترون يوجد مختصون في الصراع الفكري، وكما توجد حرب أسلحة وذخائر توجد أيضاً حرب أقلام وأحبار، فقيّد الله لهذه الأمة مفكرين سخّروا عقولهم وأقلامهم لخدمة هذه الأمة والدفاع عنها، فقدموا عصارة أفكارهم في حربهم الفكرية ضد الأعداء الذين تشكلوا في كل صورة من صور الحقد والأنانية، ولأهمية هذا الموضوع جعلنا منه عنواناً لمذكرتنا الموسوم بـ:

نقد الاستشراق في الفكر العربي المعاصر: مالك بن نبي وإدوارد سعيد أنموذجان.

أولاً: أهمية الموضوع.

تكمن أهمية الموضوع في النقاط التالية:

- 1) إلقاء الضوء على الاستشراق المعادي والخطير ببيان حقيقته، وأهدافه، ووسائله، ونشاطاته.
- 2) بيان الموقف الرافض لكل من مالك بن نبي وإدوارد سعيد في مثابرتهم الفكرية من المخططات الاستشراقية، التي اشتغلت رديحاً من الزمن في بنية الفكر العربي الإسلامي، تحفّر في الأسس،

وَتُنقَّبُ في المتون والهوامش، وتقرأ النصوص في ضوء المتوافر لها من مناهج حديثة، وأساليب بحث جديدة.

(3) بيان بعض إنتاج المستشرقين، وأثره السلبي على الفكر العربي والإسلامي الحديث.

(4) إجراء مقارنة بين موقف مالك بن نبي، وإدوارد سعيد من حيث الدواعي والجديد في نقدهما، وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف، وما قيل عن نقدهما.

ثانياً: إشكالية البحث.

مما سبق يمكننا أن نطرح التساؤلات التالية:

(1) كيف تعامل مالك بن نبي وإدوارد سعيد مع إنتاج المستشرقين نقداً وتقويماً؟

ويُمكن أن تُضاف إليه بعض الأسئلة الفرعية منها:

(2) ما هي طبيعة التربة المعرفية التي ولد فيها الاستشراق؟ وما هي أبعاده المعرفية والإيديولوجية؟

(3) وما هي دواعي نقدهما للاستشراق، وما أثر هذا النقد على الساحة الفكرية العربية؟

(4) ما الفرق بين نقد مالك بن نبي وبين نقد إدوارد سعيد للاستشراق؟ وما الجديد في نقدهما؟

(5) وما هو موقف الباحثين والمهتمين بالاستشراق من نقد مالك بن نبي وإدوارد سعيد؟

ثالثاً: أسباب اختيار البحث.

1/ الأسباب الذاتية:

(1) الرغبة الشخصية في اختيار محور الاستشراق عن غيره من المحاور المقترحة التي لا تقل أهمية عنه.

(2) ليكون لموضوع بحثنا أكثر قيمة وأكثر موضوعية، وحتى لا يكون هناك انحياز ولا نُتهم بالتحامل،

ارتأينا التنوع في اختيار الشخصيتين، فأحدهما مُسلم، والثاني مسيحي الديانة.

(3) الميول الشخصية لدراسة فكر شخصيتين بارزتين قويتين ورائدتين، ومفكرين عملاقين ندرًا حياتهما

في خدمة القضايا الفكرية والإنسانية، مالك بن نبي، وإدوارد سعيد.

2/ الأسباب الموضوعية:

من الأسباب الموضوعية التي دفعتنا لاختيار الكتابة في هذا الموضوع هي:

(1) أردنا أن نبين ونسلط الضوء على جهود المفكرين العرب المعاصرين في نقد الاستشراق، وكنموذج

اخترنا مالك بن نبي وإدوارد سعيد، وأن يكون لنا موضع قدمٍ في هذا الصراع الفكري الضروس بين

الشرق والغرب، كما قال ربنا تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ سورة البقرة: 108.

(2) لقد حَزَّ في أنفسنا واقع حالنا الذي يُندرنا بما يقوم به المستشرقون . ولا يزالون . من مجهودات وجهود جبارة لضرب وتشويه الحضارة الإسلامية والعربية.

(3) كان لزاماً علينا أن نُنصف أنفسنا ليس مُحاباةً، ولكن من باب حق الرد أن نبيّن لمن بعدنا من الطالبات والطلبة حقيقة الكثير من المستشرقين وما أنتجوه، ولا نقول الكل من باب الموضوعية. لكن الذين انبهروا وتحمسوا لفكرهم بعض الباحثين والدارسين والمهتمين بهم.

رابعاً: أهداف البحث.

من الأهداف التي نسعى إلى تحقيقها في هذا البحث:

(1) مسألة ظاهرة الاستشراق كشكل من أشكال التفاعل المعرفي والثقافي والحضاري والديني بين الشعوب.

(2) بيان حقيقة المستشرقين المادحين للتراث الحضاري الإسلامي عند مالك بن نبي، والحاقدين الغير مُنصفين عند إدوارد سعيد. وكيف كانت قراءة كل واحد منهما.

خامساً: الدراسات السابقة للموضوع.

من الدراسات التي كتبت في هذا الموضوع أو قريب منه، وهي الآن بين أيدينا نذكر:

(1) موقف مالك بن نبي من الاستشراق، للطالبة: حميدة هجيرة، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في الأدب والحضارة، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، 2016م.

(2) مالك بن نبي وقضايا عصره (الاستعمار والاستشراق نموذجاً) للطالبة: رحمون حبيبة، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في التاريخ، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، 2021م.

(3) موقف مالك بن نبي من إنتاج المستشرقين نحو وعي نضوي جديد، مقال للدكتور: خالد مزاتي محاضر بجامعة أدرار، نُشر في مجلة مفاهيم للدراسات الفلسفية والإنسانية المعمقة، بجامعة زيان عاشور، الجلفة، العدد: السابع، مارس 2020م.

(4) الرد على الاستشراق في الفكر العربي المعاصر، للباحث التونسي: الساسي بن محمد الضيفاوي، بحث منشور على الأنترنت: موقع مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

5) الاستشراق عند إدوارد سعيد، للطالبة لويزة بن عيسى، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في العلوم الاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2019م.

لكن الإضافة الفارقة بين ما سبق ذكره من الدراسات وبحثنا هذا:

أنّ الدراسات السابقة كان تركيزها في دراستها التحليلية للاستشراق على شخصية واحدة على حدى، إمّا مالك بن نبي، أو إدوارد سعيد.

لكن المميّز في هذا البحث المتواضع هو الجمع بين الشخصيتين: مالك بن نبي، وإدوارد سعيد، في قراءتهما للاستشراق في دراسة تحليلية مقارنة، تبرز التوافق والاختلاف بينهما وجديد أفكارهما في نقد الاستشراق.

سادساً: منهج البحث.

اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي المقارن، وذلك بذكر آراء وأفكار مالك بن نبي، وإدوارد سعيد، ثم نقوم بتحليلها، ثم نُجري مقارنة بينهما.

سابعاً: صعوبات البحث.

من الطبيعي لأي طالب أن تعترضه بعض الصّعوبات التي تزيد من اصراره على مواجهة التحديات للوصول إلى المبتغى ومن أبرزها:

- صعوبة التواصل باللقاء بيننا وذلك بسبب تباعد أماكن الإقامة وظروف كل منا.

ثامناً: خطة البحث:

خطة العمل التي سنسير عليها في هذا البحث هي كالآتي:

أولاً: الفصل الأول: تعريف الاستشراق، نشأته، أهدافه، وسائله، ونشاطاته.

وقد قسّمناه إلى خمسة مباحث: المبحث الأول تطرقنا فيه في المطلب الأول إلى تعريف الاستشراق في لغة العرب، ثم في المطلب الثاني تعريفه في الاصطلاح، أمّا المبحث الثاني متى وكيف نشأ الاستشراق وكيف تطور، أمّا المبحث الثالث فخصصناه إلى الأهداف التي يرمي إلى تحقيقها المستشرقون، وفي المبحث الرابع سنتكلم فيه عن أبرز نشاطات المستشرقين والوسائل التي يستعملها المستشرقون في نشر فكرهم الاستشراقي.

أما الفصل الثاني: حيث يبدأ فيه صُلب البحث، قسّمناه إلى ثلاثة مباحث، المبحث الأول نبذة تعريفية عن حياة المفكر الجزائري العملاق مالك بن نبي وتكوينه الفكري، وقسّمناه إلى ثلاثة مطالب: المطلب الأول: مولده ونشأته، تعليمه وهجرته، أما المطلب الثاني: فسيكون الحديث عن مكونات شخصيته ومصادر فكره، أما المطلب الثالث: إنتاجه من مؤلفات وكتب، وسنذكر كذلك مشروعه الفكري، ونختم هذا المطلب بوفاته.

وفي المبحث الثاني سيكون الاستشراق عند مالك بن نبي، وقد قسّمناه إلى مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم الاستشراق وأصناف المستشرقين وتأثيرهم من منظور مالك بن نبي، وفي المطلب الثاني: سنتحدث فيه عن أبرز الأهداف التي يرمي لها المستشرقون في نظر مالك بن نبي، أما المبحث الثالث: سنبرز فيه موقف مالك بن نبي من الاستشراق، وقد قسّمناه إلى ستة مطالب، المطلب الأول تحديد المشكلة الاستشراقية ومعالجة مالك بن نبي لها، أما المطلب الثاني فكان لنقد مالك بن نبي للاستشراق، ونقده للمستشرقين المدافعين والمداحين للإسلام والمسلمين والعرب والحضارة العربية كان في المطلب الثالث، أما المطلب الرابع فخصصناه لدور الاستشراق في تخدير العقل الإسلامي، وتطرقنا في المطلب الخامس إلى أثر إنتاج المستشرقين على واقع العالم الإسلامي، وفي المطلب السادس في هذا الفصل كانت لنا وقفة مع انفعالات مالك بن نبي في كتابه العفن وعلاقة لويس ماسينيون به.

الفصل الثالث: تطرقنا فيه للشخصية الثانية إدوارد سعيد ونقده للاستشراق، وقد قسمناه إلى ثلاثة مباحث: المبحث الأول: نبذة تعريفية عن حياة المفكر الفلسطيني الرائد في مجاله: إدوارد سعيد، وخصصنا المطلب الأول منه للمولد والنشأة، والمطلب الثاني: لدراسته وتكوينه، أما المطلب الثالث سنتذكر فيه مؤلفاته وإنتاجه الفكري، ونختم بوفاته.

وسنتطرق في المبحث الثاني: إلى الاستشراق عند إدوارد سعيد. وقد قسمنا هذا المبحث إلى أربعة مطالب، المطلب الأول: مفهوم الاستشراق عند إدوارد سعيد، وفي المطلب الثاني تمثيل الشرق، وفي المطلب الثالث: السلطة والمعرفة، أما المطلب الرابع: الإسلام والغرب، هذا المبحث الثاني، أما المبحث الثالث: فهو الجوهرة الثانية من البحث: نقد إدوارد سعيد للاستشراق، وفيه ثلاثة مطالب: المطلب الأول: المنهج الدنيوي، و المطلب الثاني: النزعة الإنسانية، أما المطلب الثالث: القراءة الطباقية.

أما الفصل الرابع والأخير: فهو دراسة مقارنة بين نقد مالك بن نبي وإدوارد سعيد، وقد قسمناه إلى مبحثين، المبحث الأول: تناولنا فيه الدواعي التي دفعت مالك بن نبي وإدوارد سعيد لنقد الاستشراق والجديد في نقدهما وأثر هذا النقد على الساحة الفكرية، وفيه ثلاثة مطالب، المطلب الأول دواعي نقدهما للاستشراق، والمطلب الثاني الأفكار الجديدة في نقد مالك بن نبي وإدوارد سعيد للاستشراق، أما المطلب الثالث فكان لأثر نقدهما على الساحة الفكرية المعاصرة. أما المبحث الثاني فكان بين وجهتي مالك بن نبي وإدوارد سعيد في نقد الاستشراق، وقد قسمناه إلى ثلاثة مطالب: المطلب الأول ذكرنا فيه أوجه الاتفاق في نقدهما للاستشراق، وأوجه الاختلاف كانت في المطلب الثاني، أما المطلب الثالث فذكرنا فيه من باب الموضوعية ما قيل عن نقدهما للاستشراق. وككل بحث أكاديمي لا بد من خاتمة نذكر فيها خلاصة بحثنا، والنتائج التي توصلنا إليها، ومدى تحقق الأهداف المسطرة لهذا البحث.

الفصل الأول

تعريف الاستشراق،

نشأته، أهدافه، وسائله،

ونشاطاته.

تمهيد

يرى كثير من الباحثين أن الاستشراق ظل عبر مراحل تاريخه الطويل حاملاً بجروح عميقة ودائمة، الأمر الذي أدى بالكثير من الباحثين إلى التعامل معه تعاملًا حذرًا ويقظًا وأحياناً مُخيفاً. وفسّر الباحثون أنفسهم أسباب هذا التعامل مرجعين إياها إلى تلك المسيرة الدينية والتاريخية والسياسية والإيديولوجية التي صاحبته منذ نشأته الأولى والتي كانت سبباً رئيساً في اكتسابه وظائف عنصرية واستعمارية بامتياز.

ويرى الأستاذ سعيدي محمد أن الاستشراق ولد وتربى وترعرع في أرض فكرية وثقافية تفتقد إلى التأسيس العلمي الموضوعي النزيه والشريف، وهو أمر أوقعه وأوقع معه المفكرين والنقاد وانتاجاتهم في دائرة المحذور والممنوع والمرفوض والخطير والعدائي ... ولقد أوجد هذا الوقوع لنفسه عدداً من التبريرات الراضية رفضاً مطلقاً للاستشراق والتصدي له على أنه عدو مسيء لشعوب الشرق وخاصة الشعوب الشرقية العربية الإسلامية ولعقيدتها ولثقافتها ولتاريخها ولآدابها ولحضارتها ولغتها ولفنونها، ومن هذا المنطلق بات الإنتاج الاستشراقي شراً على المجتمع الإسلامي¹.

ويرى فؤاد زكريا أن الكثيرين من نُقاد الاستشراق قد جَمَعوا في فئة واحدة بين المستشرقين والملحدّين، أو بين المستشرقين وأعداء الإسلام أو الأمة العربية، وأصبح التعبير "افتراءات أو أكاذيب المستشرقين" من أكثر التعبيرات وُروداً على الألسن. فالحقيقة الكبرى، في نظر هؤلاء النقاد، هي أنّ كثيراً من المستشرقين يُشاركون في مؤامرةٍ تستهدف تجريح الإسلام وتشويه تعاليمه وتشكيك أبنائه فيه، وهي مؤامرة قد يُنظر إليها على أنّها امتداد للحملة الصليبية على الإسلام، التي يَظَلُّ هؤلاء المستشرقين مُمثّلين مُتأخّرين لها، أو على أنّها انتقام من هزيمة أوروبا المسيحية على يد الإسلام العثماني. أو محاولة لوضع العوائق والسُدود في وجه نهضة إسلامية حديثة لو قامت لكان فيها تهديدٌ حقيقي لحياة المجتمعات التي ينتمي إليها هؤلاء المستشرقين².

¹ سعيدي محمد، (الاستشراق والتراث الفكري العربي الإسلامي: بين الرؤية الامبريالية والرؤية العلمية)، مجلة الإنسان والمجتمع، الجزائر: جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، العدد 2 ديسمبر 2011م، ص6.

² فؤاد زكريا، نقد الاستشراق وأزمة الثقافة العربية المعاصرة، مؤسسة هنداوي، وندسور، المملكة المتحدة، (د.ط)، 2017م، ص07.

المبحث الأول: تعريف الاستشراق.

المطلب الأول: تعريف الاستشراق في اللغة:

في اللغة العربية جاء لفظ الاستشراق الذي يعني بالإنجليزية (Orientalism) من إضافة ثلاثة أحرف على أصل الكلمة التي هي (شرق)، وكلمة شرق في معجم لسان العرب:

"شَرَقَتِ الشَّمْسُ تَشْرِقُ شُرُوقاً وَشَرْقاً: طَلَعَتْ، وَاسْمُ الْمَوْضِعِ الْمَشْرِقِ، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصُّبْحِ حَتَّى تُشْرِقَ الشَّمْسُ. يُقَالُ: شَرَقَتِ الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ، وَأَشْرَقَتْ إِذَا أَضَاءَتْ. وَالشَّرْقُ: الْمَشْرِقُ، وَالْجَمْعُ أَشْرَاقٌ؛ قَالَ كَثِيرٌ عَزَّةً:

إِذَا ضَرَبُوا يَوْمًا بِهَا الْأَلَّ، زَيَّنُوا ... مَسَانِدَ أَشْرَاقٍ بِهَا وَمَغَارِبَا

والتَّشْرِيقُ: الْأَخْذُ فِي نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ. يُقَالُ: شَتَّانَ بَيْنَ مُشْرِقٍ وَمُغْرَبٍ. وَشَرَقُوا: ذَهَبُوا إِلَى الشَّرْقِ، وَفِي الْحَدِيثِ: "أَنَاخْتُ بِكُمْ الشَّرْقَ الْجُونَ" يَعْنِي الْفَتَنَ الَّتِي تَجِيءُ مِنْ قِبَلِ جِهَةِ الْمَشْرِقِ، وَالشَّرْقِيُّ: الْمَوْضِعُ الَّذِي تُشْرِقُ فِيهِ الشَّمْسُ مِنَ الْأَرْضِ، وَشَرَقَتْ، بِالْكَسْرِ: دَنَتْ لِلْعُرُوبِ، الشَّرْقُ الشَّمْسُ، يَفْتَحُ الشَّيْنِ، وَالشَّرْقُ الصُّوءُ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْ شِقِّ الْبَابِ، وَيُقَالُ لَهُ الْمَشْرِيقُ. وَأَشْرَقَ وَجْهَهُ وَلَوْنُهُ: أَسْفَرَ وَأَضَاءَ وَتَلَأَّ حُسْنًا. وَالْمَشْرِقَةُ: مَوْضِعُ الْقُعُودِ لِلشَّمْسِ، وَأَشْرَقَ الرَّجُلُ أَي دَخَلَ فِي شُرُوقِ الشَّمْسِ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾¹ أَي مُصْبِحِينَ، فَأَمَّا شَرَقُوا وَغَرَبُوا فَسَارُوا نَحْوَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿فَأَنْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾² أَي لِحِقْوِهِمْ وَقَتَ دُخُولِهِمْ فِي شُرُوقِ الشَّمْسِ وَهُوَ طُلُوعُهَا"³.

استشرق: طلب علوم أهل الشرق ولغاتهم "مولدة عصرية"، يقال لمن يعني بذلك من علماء الفرنجة⁴.

¹ سورة الحجر، 73.

² سورة الشعراء، 60.

³ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1993م، ج 10، ص 173، 179.

⁴ أحمد رضا، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1959م، ج 3، ص 310.

- الشَّرْق الأدنى: اسم يطلق على مناطق آسيا الغربيّة الواقعة على البحر الأبيض المتوسّط، شمال تركيا، قبرص، سورية، لبنان، فلسطين، وحتىّ مصر.
- الشَّرْق الأقصى: اسم يطلق على بلدان آسيا الشَّرقيّة، اليابان، كوريا، الصّين، فرموزا، الهند، الفلبين، فيتنام، تايلاند، بورما، ماليزيا، أندونيسيا.
- الشَّرْق الأوسط: اسم يُطلق على بعض مناطق آسيا الجنوبيّة الغربيّة، شبه الجزيرة العربيّة، الأردن، سورية، لبنان، العراق، تركيا، إيران، مصر، السّودان وحتىّ أفغانستان وباكستان أحياناً.
- الكُتلة الشَّرقيّة: روسيا ومنّ دار حولها.
- المشرق: البلاد الإسلاميّة في شرقيّ الجزيرة العربيّة.
- المشرقان: المشرق والمغرب "على التّغليب" "يا لَيْتَ بَيْتِي وَبَيْتِكَ بُعَدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبَيْسَ الْقُرَيْنِ"¹.

المطلب الثاني: تعريف الاستشراق في الاصطلاح:

اختلف الباحثون كثيراً في تعريف الاستشراق والمستشرق، وذلك لاختلافهم في تحديد معنى الشرق. ولعلّ أحسن تفسير لكلمتي الشرق والغرب حضارياً، ما ذكره محمد حسين قال: "أمّا الغرب فهو اصطلاح جرينا فيه على ما اصطلاح عليه الأوروبيون في عصور الاستعمار من تقسيم العالم إلى شرق وغرب. ويعنون بالغرب أنفسهم ويقصدون بالشرق أهل آسيا وإفريقيا، الذين كانوا موضع استعبادهم واستغلالهم واستعمارهم، وجرينا نحن على هذا الاستعمال. لكن الكلمة وإن كانت حديثة اصطلاحاً واستعمالاً فهي قديمة في مفهومها ودلالاتها. فقد كانت في العالم منذ زمن قديم قوتان متصارعتان: إحداهما في الشرق والأخرى في الغرب. ويمثل ذلك في الصراع بين الفرس والروم، ثم في الصراع بين المسلمين والصليبيين، ثم في الصراع بين العثمانيين والأوروبيين مداً وجزراً، ثم كان آخر

¹ أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2008م، ج 2، ص 1193.

فصول هذه الملحة العلاقات والصّلات بين الشرق والغرب ممثلا في آسيا وإفريقيا، وبين الغرب ممثلا في أوروبا وأمريكا¹.

إنّ الحديث عن الاستشراق دفعة واحدة يتعدى طاقاتنا المعرفية والمنهجية والموضوعاتية، وذلك في اعتقادنا على الأقل، يعود إلى تاريخه الطويل، وإلى غزارة مادته وتنوع فروعها ومجالاتها وتعدد أقطابها الإبداعية وتنوع رؤى ومناهج وأهداف أصحابها.

ولعلّ أول سؤال ظل يضغط علينا وبقوّة في هذه المقدمة الافتتاحية، هو وبكل بساطة: ما معنى الاستشراق؟

إنّنا لا ننكر جهود الباحثين المصابين بهاجس البحث عن تعريف دقيق وصحيح للاستشراق، وتعريف واحد وموحد من حيث الطرح العلمي والوظيفي. فلقد أبدعوا له تعريفات متعددة ومختلفة، حيث اعتمد بعضهم التعريف اللغوي المستمد أصلا من اللفظة نفسها والتي اعتبروها لفظة مركبة من لفظة الشرق مع إضافة التركيبية الصرفية "است" والتي تعني في قواعد اللغة العربية طلب الشيء، فالاستشراق إذن هو طلب الشرق².

في حين اعتمد البعض الآخر التعريف الفكري والأيدولوجي والتاريخي معتبرين أن الاستشراق هو ما قام به ويقوم به بعض مفكري الغرب للوقوف على معالم الفكر الإسلامي وحضارته وثقافته وعلومه، كما يطلق لفظ مستشرق على المفكرين أو المشتغلين بدراسة علوم الشرق وتاريخه وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية³.

ولعل ما يمكن الإشارة إليه، أن عددا كبيرا من الباحثين المهتمين بظاهرة الاستشراق حاولوا أن يصنع كل واحد منهم تعريفا خاصا به مستمدا من رؤيته للموضوع ومن فهمه له ولوظيفته العلمية والثقافية والحضارية والدينية والسياسية. ومن هذه التعريفات:

¹ محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، دار الارشاد، بيروت، لبنان، ط1، 1969م، ص 11.

² عقيلة حسين، المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص 31.

³ محمد السيد الجليلند، الاستشراق والتبشير: قراءة تاريخية موجزة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1999م، ص 7.

1/ يقول محمود حمدي زقزوق أنّ "الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي، وكلمة (مستشرق) بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله، أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه. وبالمعنى الخاص الاستشراق يعني: الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام. وهذا المعنى هو الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي الإسلامي عندما يطلق لفظ استشراق أو مستشرق"¹.

2/ وفي رأي محمد فتح الله الزيايدي الاستشراق: "هو دراسة الشرق عموماً ودراسة الإسلام والمسلمين خصوصاً بقصد التشويه والتشكيك"².

3/ وقال شكري النجار: "إن الاستشراق هو أسلوب غربي لفهم الشرق والسيطرة عليه، ومحاولة إعادة توجيهه والتحكيم فيه"³.

4/ ويرى أحمد حسن الزيات أن المراد بالاستشراق اليوم: "دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأهمه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته، وأساطيره. ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم"⁴.

5/ يعرف بعض الباحثين الاستشراق بأنه: "ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي شملت حضارته وأديانه، وآدابه، ولغاته، وثقافته"⁵.

6/ ويقصد بالاستشراق في بعض الأحيان: "أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز المعرفي والعرقي والإيديولوجي بين الشرق والغرب"⁶.

¹ محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المنار، القاهرة، مصر، ط2، 1989م، ص 24.

² محمد فتح الله الزيايدي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ط1، 1983م، ص 61، 62.

³ شكري النجار، (لم الاهتمام بالاستشراق)، مجلة الفكر العربي، لبنان: معهد الفكر العربي، بيروت، السنة الخامسة، 1983م، العدد 31، ص 71.

⁴ إسماعيل علي محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، دار النشر والتوزيع، ط1، 1998م، ص 10.

⁵ عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1997م، ص 16.

⁶ ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ج1، ص 20.

7/ هو : "ذلك العلم الذي تناول المجتمعات الشرقية بالدراسة والتحليل من قبل علماء الغرب"¹.

8/ أما عبد الأمير الأعمش فيضيف تعريفاً جديداً فيصفه بأنه "استشراق سياسي يرتبط بدوائر المخابرات الغربية الأوروبية والأمريكية وغيره"².

9/ يقول المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون: "وهكذا ولد الاستشراق وظهرت كلمة مستشرق في اللغة الإنجليزية حوالي 1779 م، كما دخلت كلمة الاستشراق على معجم الأكاديمية الفرنسية في 1737 م، وتجسدت فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق ولم يكن المتخصصون بعد من العدد، بحيث يمكنهم تشكيل جمعيات أو مجالات متخصصة في بلد واحد أو شعب واحد أو منطقة واحدة من الشرق، ومن الناحية الأخرى، كثر أفق هؤلاء المستشرقين ليشمل عديداً من المجالات بطريقة غير متوازية في عمقها، ومن هنا بدأ تصنيفهم كمستشرقين، وشهدت فكرة الاستشراق تعمقا كبيرا إلا أنها تعرضت كذلك لأضرار وندوب"³.

10/ يرى المستشرق رودني بارت (1901-1983م) أنّ الاستشراق علم "يختص بفقهِ اللغة خاصة، وأقرب شيء إليه، وكلمة الاستشراق مشتقة من كلمة "الشرق" وكلمة الشرق تعني مشرق الشمس وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق وعلم العالم الشرقي"⁴.

وعليه فالذي يتبادر إلى الذهن أن الاستشراق هو دراسة الإسلام والمسلمين والعرب من قبل غير المسلمين خاصة، بقصد التشويه والتشكيك فيه في الغالب، لأن معظم بحوث هذه الفئة ودراساتهم تركزت عليه.

فما تعريف المستشرق ؟

¹ ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، المرجع السابق، ص 20.

² عبد الأمير الأعمش، دراسات في الاستشراق، دار الفرق، دمشق، سوريا، ط1، 2011م، ص 79.

³ نقلا عن أحمد سمائلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1997م، ص 24، 25.

⁴ رودني بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، ترجمة: مصطفى ماهر، ماهر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، د.ط، 2011م، ص 17.

1/ يقول محمد محمد حسين: "إنّ اصطلاح المستشرقين اصطلاح واسع يشمل طوائف متعددة من الباحثين والعلماء، الذين يعملون في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة، فهم يدرسون العلوم والفنون والآداب واللغات والديانات والتاريخ وكل ما يخص شعوب الشرق، مثل: الهند والفرس والصين واليابان والعالم العربي وغيرهم من الأمم والشعوب"¹.

2/ ويرى علي الخربوطلي: "المستشرق هو عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية"².

3/ وقال الأستاذ محمد كرد علي: "المستشرقون هم من يعنون بالبحث في لغات الشرق وعلومه"³.

4/ ويرى منير البعلبكي في قاموس المورد: "المستشرق هو الدارس للغات الشرق وفنونه وحضارته"⁴.

5/ وقال محمد فتح الله الزيايدي: "المستشرق كل متخصص غربي في البحث والدراسة حول الإسلام والمسلمين بقصد التشويه والتشكيك فيه"⁵.

6/ أما ناجي التكريتي فيرى أن كلمة مستشرق تطلق "على الرجل الذي يتعمق بدراسة حضارة من حضارات الشرق، أو الذي ينجح في دراسة جزء واحد من حضارات الشرق، لقد تعودنا أن نطلق اسم (مستشرق) على الذي يهتم بدراسة حضارتنا العربية والإسلامية، وكثير من المجتهدين يرون أن نطلق على الذي يهتم بدراسة حضارتنا العربية اسم (مستعرب) طالما هذا يدرس أدبنا وعلمنا وتراثنا..."⁶.

¹ محمد محمد حسين، المرجع السابق، ص 11 .

² علي الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1988م، ص 12.

³ محمد كرد علي، مجلة الجمع العلمي العربي، تصدر عن مجمع اللغة العربية، سوريا، المجلد 3، ص 75. نقلا عن شاكر عالم شوق، (الاستشراق: أخطر تحد للإسلام)، مجلة دراسات، بنغلاديش: الجامعة الإسلامية العالمية، شيتاغونغ، المجلد 3، ص 65.

⁴ منير البعلبكي، المورد: قاموس إنجليزي عربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1985م، ص 638.

⁵ محمد فتح الله الزيايدي، من مذكرته لمادة الاستشراق، ص 5. نقلا عن شاكر عالم شوق، المرجع السابق، ص 64.

⁶ ناجي التكريتي، المستشرقون بين السلب والإيجاب، مجلة الفلسفة، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق، العدد 2، لسنة 2002م، ص 1.

فالمختصة: أن المستشرق هو كل من يتخصص في بحث ودراسة كل ما يتعلق بالشرق عامة، والإسلام والمسلمين خاصة.

المبحث الثاني: نشأة الاستشراق وتطوره.

لاشك أنه من الصعب جداً تحديد تاريخ معين لبداية الاستشراق، وليس هناك دليل قاطع يدل على البداية الحقيقية والمنظمة للاستشراق. فاختلف الباحثون في نشأته وبدايته. ربما ذلك بسبب اختلافهم حول مفهوم الاستشراق أو بيان الأسباب والدوافع أو بداية الاستشراق بمحاولة فردية أو منظمة. ونلخص فيما يلي بعض تلك الآراء:

1/ هناك من قال: إن الاستشراق بدأ في القرن السادس قبل الميلاد، ويراد به زيارة الشرق والسفر إليه والاطلاع على تقاليده و تاريخه ثم الكتابة عنه، بغض النظر عن الجانب الديني أو السياسي أو العلمي، كالمؤرخ اليوناني الإغريقي (هيردوتس) يعتبر أول مستشرق، لأنه زار الشرق وكتب عنه في القرن السادس قبل الميلاد¹.

2/ يقول بعض الباحثين: إن الاستشراق بدأ في القرن السابع الميلادي في العهد الأموي حيث قام العالم النصراني يوحنا الدمشقي (686م / 749م) بدراسة الإسلام بقصد التشويه والتشكيك، ولأجل حماية إخوانه النصارى. ومن كتبه: "محاورة مع المسلم"، "وإرشادات النصارى في جدل المسلمين"².

3/ قال البعض: إن الاستشراق انطلق من الأندلس في القرن الثامن الميلادي، حيث دخلها المسلمون في عام 711م، واحتك سكان أوروبا من المسيحيين وغيرهم مع المسلمين، واختلطوا معهم اختلاطاً علمياً وثقافياً في جامعات المسلمين ومعاهدهم ومدارسهم هناك، وتعلموا عليهم، ثم رجعوا إلى بلادهم وأوساطهم متأثرين بالثقافة الإسلامية³.

¹ ساسي سالم الحاج، المرجع السابق، ص 28.

² محمود حمدي زقزوق، المرجع السابق، ص 19.

³ المرجع نفسه، ص 20.

4/ وقال الآخرون: إنه بدأ في القرن العاشر الميلادي، حيث توافد رجال من أوروبا إلى الأندلس، ودرسوا في جامعات المسلمين اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية، وكذلك الطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات وغيرها من العلوم التجريبية، ثم قاموا بترجمة الكتب العربية إلى لغاتهم، وعلى رأسهم الراهب الفرنسي جربرت (Jerbert) الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام 999م بعد تعلمه في معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده، و (بطرس المحترم) (1092-1156م) (Pierre Aénéré) و (جيرار دي كرمون) (1114-1187م) (Gérard de Grémone)¹.

5/ قيل: أنه بدأ في القرن الثاني عشر الميلادي، وذلك حين ترجم الراهب الإنجليزي "هرمان" القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية عام 1143م، وكما صدر أول قاموس عربي. لاتيني في هذه الفترة².

6/ وقيل: بدأ الاستشراق في القرن الثالث عشر الميلادي، وذلك بعد انتهاء الحروب الصليبية التي بدأت عام 1095م، وانتهت عام 1291م بهزيمة نكراء للصليبيين، فتوجهوا إلى دراسة أسباب غلبة المسلمين وفوزهم. وهكذا بدأ الاستشراق³.

7/ وقيل: بدأ في القرن الرابع عشر الميلادي، وهو بداية الاستشراق الرسمي، حيث صدر قرار من مجمع فيينا الكنسي عام 1312 م، بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدة جامعات أوروبية⁴.

8/ وقيل: بدأ في القرن السادس عشر الميلادي، وهو ما يسمونه فترة الإصلاح الديني، وفيها بدأ اتصال الغرب المسيحي بالشرق المسلم اتصالا اقتصاديا. سواء في كشف موارد الثروة فيه أو في استغلالها ونقلها إلى الغرب. في صورة تبادل تجاري أو في صورة أخرى⁵.

¹ مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1979م، ص 14.

² محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1983م، ص 90.

³ محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط6، 1973م، ص 532.

⁴ محمد فتح الله الزيايدي، الاستشراق: أهدافه ووسائله، دار قتيبة، بيروت، لبنان، ط2، 2002م، ص 26.

⁵ علي جريشة، أساليب الغزو الفكري، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، ط1، 1977م، ص 19.

9/ وقيل: بدأ في القرن الثامن عشر الميلادي أي بالتحديد بعد الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م، حين جاء نابليون (Napoleon Bonaperte) إلى مصر، وحمل معه عددا كبيرا من العلماء، كما حمل معه مطبعة عربية ساعدت هؤلاء العلماء في القيام بأبحاث متعددة وطبعها ونشرها¹.

هذه أقوال العلماء والباحثين باختصار حول نشأة الاستشراق.

المبحث الثالث: أهداف الاستشراق.

إنّ جذور الاستشراق وإرهاصاته الأولى ضاربة في القدم، إذ ترجع إلى انعكاسات المدّ العربيّ الإسلاميّ الآخذ في الاستيساع والتّمكّن في أقاصي الأرض وأدناها، وموقف الجانب المسيحيّ منه، الذي لم ينظر بعين الرضى، إلى تقلص نفوذه التاريخي والجغرافيّ، فحصلت الحروب الصليبيّة، وحروب الاسترداد، لتتلوها الحروب الاستعماريّة للعالم العربيّ الإسلاميّ، وكان من بين ما أسفرت عنه الصراعات العربيّة الغربيّة عسكريّا وفكريّا أنّ التّفَتَ الغرب إلى العلوم والمعارف، وأدرك أهميّة ذلك في صراعه مع العالم الإسلاميّ².

ومن بين البواعث التي فتحت صفحات بحثيّة في دراسة الشرق هي غرور الغرب بالتفوّق العسكريّ، ومحاولة إخضاعه البلاد الإسلاميّة لهيمنتته وسلطته وسلطانته، إحياءً لعهد جديد من الحروب الصليبيّة؛ لذا لم يتوان الغرب في التّقليب والتّنقيب في المدوّنة التراثيّة، وتعلّم اللّغة العربيّة، والقيام بدراسات وبحوث حول الشرق وما يتعلق به من دين وعقيدة وعلم وفن وثقافة وحضارة وتقليد وغيرها، وبذلوا جهوداً كبيرة وأموالاً طائلة، بل بعضهم قد أفنوا حياتهم في مثل هذه الدراسة. فبعضنا يندهش ويتعجب فيتساءل: ما الذي يدعو الباحث الغربيّ إليه؟ ما الذي يحمله على ذلك؟ وما هي الأهداف التي ينشدها ويرمي إليها؟

¹ علي الخربوطلي، المرجع السابق، ص 28.

² محمد فاروق النبهان، الاستشراق: تعريفه، مدارسه آثاره، منشورات المنظمة الإسلاميّة للتّربيّة والعلوم والثقافة، الرباط، ط1، 2007م، ص 11.

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن معرفة الدوافع الحقيقية هي التي تحدد الهدف الذي يسعى إليه المستشرقون من خلال دراساتهم وبحوثهم حول الشرق، وبالأخص الإسلام والمسلمين، فهذا العدد الهائل من المستشرقين في عديد من بلاد العالم الذين سخروا كل جهودهم، بل أفنوا أعمارهم في دراسة وتحليل حضارة غريبة عنهم، بالتعاون مع الدوائر الاستعمارية التي تغدق عليهم الأموال وتمدهم بكل الإمكانيات. ولاشك أن كل ذلك يحمل في طياته أهدافا كثيرة يسعى هؤلاء الغربيون إلى تحقيقها والاستفادة منها. ويمكن لنا أن نصنف هذه الأهداف إلى هدف ديني وهدف علمي وهدف سياسي استعماري وهدف ثقافي وهدف اقتصادي أو تجاري وغيرها.

ومن بين الأهداف التي صاحبت نشأة الاستشراق ما يلي:

1/ الهدف الديني: يتبين لدى كل باحث عن الاستشراق دون شك وارتياح، أن الهدف الديني كان وراء نشأة الاستشراق ودعم الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا¹. وقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تاريخه، ويتمثل هذا الهدف الديني في اتجاهات ثلاثة وهي:

أ / محاربة الإسلام: وذلك ب :

- البحث عن نقاط ضعف فيه وإبرازها، وإعطاء صورة مشوهة عنه.
- عدم الإيمان بنبوة محمد ﷺ، وتكذيب رسالته، والطعن في شخصه، والحط من قدره.
- التشكيك في المصادر الإسلامية من قرآن وسنة، وسيرة، وعدم التعويل على ما كتبه المؤرخون المسلمون.

- الزعم أن الفقه الإسلامي قد استمد من الفقه الروماني.
- إرجاع نشر وانتشار الإسلام شرقا وغربا، واتساع رقعة الإسلام، إلى وقع السيف.
- سرعة وسهولة الفتوحات الإسلامية عائدة للجو الجيواستراتيجي السائد عقب ظهور الإسلام، بتداعي الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية.
- التأكيد على تأثر الإسلام بالديانات السابقة (اليهودية والمسيحية)، والثقافات المجاورة له.

¹ محمود حمدي زقزوق، المرجع السابق، ص 86.

ب/ حماية النصارى من خطر الإسلام: حسب زعمهم بحجب حقائقه عنهم، وإطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستسلام لهذا الدين.

ج / تنصير المسلمين: عن طريق حركات التبشير والتنصير، وإبعادهم عن دينهم وتراثهم وحضارتهم. وزرع التخادل، وخلق فجوة بين المسلمين وأصولهم. ضف إلى هذا أن أغلب المستشرقين هم في الأساس من آباء الكنيسة ، وتلامذتهم ، أي أن أكثرهم متدينون، ومن الصعب أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عقائد أساسية في أديانهم، ويطلها بالدليل مثل: عقيدة التثليث والصلب، والفداء¹.

2/ الهدف العلمي: لم تكن أوروبا لتنهض نخصتها دون أن تأخذ بأسباب ذلك، وهو دراسة منجزات الحضارة الإسلامية، فقد رأى زعماء أوروبا أنه إذا كانت أوروبا تريد النهوض الحضاري، والعلمي فعليها بالتوجه إلى بواطن العلم تدرس لغاته وآدابه وحضارته².

فانكب الغربيون على دراسة الكتب الإسلامية ، فلم يتركوا مجالاً كتب فيه العلماء المسلمون حتى درسوا هذه الكتابات، وترجموها عنها وأخذوا منها.

ونستطيع أن نقول إن الدافع العلمي تمثل في ثلاث اتجاهات على النحو التالي:

أ/ البحث عن نقاط القوة في الدين الإسلامي، وفي المسلمين للاستفادة منها في نهضة الشعوب الأوروبية، وخاصة عندما فتح المسلمون الأندلس، وأقاموا فيها حضارة زاهرة، وأكبها نهضة علمية خارقة، فحرص المستشرقون على أن ينهلوا من علوم الشرق الإسلامي، ويقتبسوا من حضارته لينهضوا مثل المسلمين، فكان لابد من تعلم اللغة العربية، والتلمذ على أيدي علماء المسلمين والرحلة إلى حيث يقيمون³. ونقل تلك العلوم إلى أهاليهم في الغرب.

¹ ماضي محمود، الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، دار الدعوة، المدينة المنورة، السعودية، ط2، 1996م، ص 21.

² مازن مطبقاني، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية، (د.ط)، 1995م، ص 10.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ب/ من المستشرقين من دخل هذا المجال بدافع علمي محض، ولم يكن قصدهم من وراء ذلك إلا البحث والتمحيص و دراسة التراث العربي والإسلامي دراسة محايدة تجلو لهم بعض الحقائق الخافية عنهم، وهذا الصنف عددهم قليل جداً. وبالرغم من إخلاصهم وتحايدهم في البحث والدراسة لا يسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق، إما لجهلهم بأساليب اللغة، وإما لجهلهم بالأجواء الإسلامية على حقيقتها. وهذه الفرقة من المستشرقين أسلم وأقل خطراً من الآخرين، إذ سرعان ما يرجعون إلى الحق حين يتبين لهم. ومنهم من يعيش بقلبه وفكره في جو البيئة التي يدرسها، فيأتي بنتائج تنطبق مع الحق والصدق والواقع، لكنهم يلقون عنتا وشدة من المستشرقين الآخرين حيث يتهمونهم بالانحراف عن المنهج العلمي، أو الانسياق وراء العاطفة، أو الرغبة في مجاملة المسلمين والتقرب إليهم. كما فعلوا مع (توماس أرنولد) حين أنصف المسلمين في كتابه "الدعوة إلى الإسلام" فقد برهن فيه على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدين على عكس مخالفيهم معهم، فطعن فيه المستشرقون المتعصبون خاصة المبشرين منهم بأنه كان مندفعاً بعاطفة قويّة من الحبّ والعطف على المسلمين¹.

ج/ البحث لمعرفة الدين الإسلامي والعمل على نقله مشوّها إلى الجماهير الأوروبية ليثبتوا للعالم المسيحي، أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار، ثم تطور الأمر في محاولة إلى زعزعة المثل العليا للإسلام في نفوس المسلمين واثبات تفوق الحضارة الغربية².

ربما تكون هناك أهداف أخرى يرمي بعض المستشرقين إلى تحقيقها لكنها غير شائعة، ولذا غضضنا الطرف عنها.

3/ الهدف السياسي الاستعماري: إنّ الدافع السياسي للمستشرقين يرتبط بالدافع الاستعماري، وهكذا نشأت رابطة وثيقة بين الاستشراق والسياسة والاستعمار، فقد أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين البلاد الغربية والدول الإسلامية، فاقنضت السياسة الاستعمارية الغربية والتفكير الاستعماري أن يكون في كل سفارة من سفاراتها أو قنصلياتها لدى الدول الإسلامية ملحق ثقافي أو ملحق سياسي

¹ شاكر عالم شوق، المرجع السابق، ص 70.

² مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1979م، ص 16.

من الرجال الذين لهم باع طويل في الدراسات الاستشراقية ويجسنون اللغة العربية أو لغة أهل البلد، وعمل بعض المستشرقين كمستشارين لوزارات الخارجية لدولهم ، وكقناصل¹.

وكان الموظف الاستعماري لا يحصل على الوظيفة في الإدارة الاستعمارية ما لم يكن على دراية بالمنطقة التي سيعمل بها، كي يتحملوا مهمة الاتصال برجال الفكر والثقافة والصحافة والسياسة، والامتزاج بهم والتعرف على أفكارهم واتجاهاتهم. ومن ثم بث الاتجاهات والرؤى السياسية فيهم حسبما تريده دولتهم، حتى يكونوا أداة منفذة طيعة لكل مخططات الاستعمار وأساليبه².

وقد أصدر على . سبيل المثال . المستشرق والموظف البريطاني (جون قوردون لوريمر) لدى الحكومة البريطانية في الهند بين عامي 1903م و 1915م، كتابا من أربعة عشر مجلدا بعنوان: "دليل الخليج"³. وهو موسوعة تاريخية وجغرافية وإحصائية باللغة الانجليزية، تُعنى بمنطقة الخليج العربي والجزيرة العربية والعراق.

ومما يؤكد ارتباط الدراسات الاستشراقية بالأهداف السياسية الاحتلالية، أن الحكومة الأمريكية موّلت عددًا من مراكز الدراسات العربية الإسلامية في العديد من الجامعات الأمريكية، ومازالت تمول بعضها إما تمويلًا كاملاً أو تمويلًا جزئيًا، وفقا لمدى ارتباط الدراسة بأهداف الحكومة الأمريكية وسياساتها⁴. كما يستضيف الكونغرس⁵، وبخاصة لجنة الشؤون الخارجية، أساتذة الجامعات والباحثين المختصين في الدراسات العربية الإسلامية لتقديم نتائج بحوثهم و إلقاء محاضرات على

¹ سعد آل حميد، أهداف الاستشراق ووسائله، جامعة الملك سعود، كلية التربية، قسم الثقافة الإسلامية، (د.ط)، (دن)، ص 8.

² محمد فتح الله الزبدي، الاستشراق أهدافه ووسائله، المرجع السابق، ص 33.

³ عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق في وجه الاستعمار الفكري، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1995م، ص 65.

⁴ سعد آل حميد، المرجع السابق، ص 9.

⁵ الكونغرس: الكونغرس الأمريكي، هو المؤسسة الدستورية الأولى في الولايات المتحدة الأمريكية ويعتبر الهيئة التشريعية في النظام السياسي، ونشأة فكرة تأسيسه عن تقليد مجالس النواب الذي انتقل من بريطانيا، حيث يتألف من مجلسين هما: مجلس الشيوخ الأمريكي، ومجلس النواب الأمريكي. انظر: محمد حمزة حسين الدليمي، وآخرون، الكونغرس الأمريكي دراسة تاريخية سياسية قانونية، الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2019م، ص 59.

أعضاء اللجنة، كما ينشر الكونجرس هذه المحاضرات والاستجابات نشرًا محدودًا لفائدة رجال السياسة الأمريكيين¹.

فبهذه الوسيلة توغل بعض المستشرقين إلى البلاد الإسلامية، واتصلوا بالعناصر الوطنية البارزة من السياسيين والقادة والصحافيين والمثقفين والعلماء، فبثوا فيهم الأفكار أو السياسة الغربية، وبذلك أصبحوا أداة طيعة للاستعمار والمستعمرين لتنفيذ سياساتهم في البلاد الإسلامية. وفي هذا المجال كان هدف المستشرقين هدفًا سياسيًا، ودعمتهم الحكومات الغربية².

وكان هذا هو العامل الرئيسي والأساسي في تفجير الكثير من الصراعات الفكرية والسياسية في البلدان الإسلامية التي نتج عنها تغيير في الحكومات أو تغيير في بناء هيكل الدولة. وكذلك الانقلابات العسكرية والفتن التي تحدث في بعض الدول العربية والإسلامية.

4/ الهدف الثقافي: من أبرز أهداف الاستشراق نشر الثقافة الغربية انطلاقًا من النظرة الاستعمارية التي تنظر بها إلى الشعوب الأخرى، ومن أبرز المجالات الثقافية نشر اللغات الأوروبية ومحاربة اللغة العربية، وصبغ اللغة العربية والإسلامية بالطابع الثقافي الغربي.

إن المستشرقين يهتمون باللغة العربية بالعجز عن مسايرة ركب الحضارة الحديثة، ويزعمون أن اللغة العربية تعجز بقاموسها اللغوي عن حمل العلوم والفنون التي جاء بها العصر الحديث، وأن التخلف الذي أصاب المجتمع الإسلامي سببه قصور اللغة العربية وعجزها عن نقل ما جاءت به العقول والقرائح عند الأمم الغربية، ولهذا يجب على أهل العربية - في زعمهم - أن يتركوا هذه اللغة ويبحثوا عن لغة أخرى حتى يلحقوا بركب الحضارة، وقد لُقن المستشرقون بعض تلاميذهم من المسلمين الدعوة إلى العدول عن الكتابة بالحروف العربية إلى الحروف اللاتينية؛ بحجة أن عملية الطباعة بالحروف العربية شاقة بطيئة، أما كتابة الكلمات العربية بالحروف اللاتينية فإنها لا تحتاج إلى جهد ووقت، كما أن في اللغة العربية حروفًا لا مثل لها في الحروف اللاتينية، مثل الثاء والحاء والطاء

¹ آصف حسين، (المسار الفكري للاستشراق)، السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي، ترجمة: مازن مطبقاني، السنة 1992م، العدد 7، ص 556.

² محمد فتح الله الزبدي، الاستشراق أهدافه ووسائله، المرجع السابق، ص 43.

والعين والقاف، وهذه الحروف لا يتيسر النطق بها نطقاً سليماً بالحروف اللاتينية، كما لقن المستشرقون بعض تلاميذهم من العرب الدعوة إلى استعمال اللغة العامية بدل الفصحى؛ بحجة أن الفصحى لا تستعمل في الحياة العامة، فهي في واد والحياة في واد آخر¹.

وقد نشط الاستشراق في هذا المجال أيما نشاط، فأسس المعاهد العلمية والتنصيرية في أنحاء العالم الإسلامي، وسعى إلى نشر ثقافته وفكره من خلال هؤلاء التلاميذ².

وقد ذكر السيد محمد الشاهد أنّ الغزو الثقافي كان من خلال التغريب الفكري بعدة طبقات ذكرها فيما يأتي:

1/ التعلم من حيث المنهج، ومن حيث المادة العلمية.

2/ وفي مجال الإعلام: تُشتغل كل الوسائل الإعلامية المتاحة وخاصة أفلام السينما والتلفاز تأثير غير مباشر³.

3/ الحرص على إنشاء المدارس، والجامعات الغربية في العالم الإسلامي فمن ذلك: الكلية الإنجليزية التي تحولت إلى الجامعة الأمريكية، التي لها فروع في كل من القاهرة، وبيروت واسطنبول، وديبي، بالإضافة إلى كلية فيكتوريا وهي عبارة عن مدرسة ثانوية، الهدف منها هو تنشئة أجيال من أبناء المسلمين يكونون جسراً بين الثقافة الغربية، ومواطنيهم المسلمين⁴.

¹ عبد المنعم محمد حسنين، الاستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوته، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط2، 1977م، ص 94.

² محمود شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، دار المدني، جدة، السعودية، (د.ط)، 1987م، ص 108.

³ السيد محمد الشاهد، رحلة الفكر الإسلامي من التأثير إلى التأزم، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1994م، ص 131.

⁴ حمادية هجيرة: موقف مالك بن نبي من الاستشراق، مذكرة ماستر في الأدب والحضارة، غير منشورة، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم: كلية الأدب والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، 2015/2016م، ص 33.

مما سبق نستخلص أن الاستشراق حقق نجاحًا كبيرًا في التأثير في الحياة الثقافية، والفكرية في العالم الإسلامي فبعد أن كان القرآن والسنة، من مصادر المسلمين المهمة في جميع شؤون حياتهم، أصبحت المصادر الغربية تدخل في تكوين الفكر الثقافي لهذه الأمة.

5/ الهدف الاقتصادي التجاري: وهذا الهدف قد ظهر في عصر ما قبل الاستعمار الأوربي للعالم الإسلامي، واستمر حتى بعد استقلاله بعد أن كان الأوربيون مهتمين بتوسيع تجارتهم والحصول من بلاد الشرق على المواد الأولية لصناعاتهم التي كانت في طريقها للازدهار. ولذا كان من الضروري السفر والتنقل إلى البلاد الإسلامية، والتعرف عليها ودراسة جغرافيتها الطبيعية والزراعية والبشرية وطبائع وميول سكانها، حتى يتمكنوا من التعامل على بصيرة مع تلك البلاد، ويحققوا من خلالها ما يرمون إليه بجعل هذه البلاد سوق استهلاك لمنتجاتهم وصناعاتهم.

فكان الشرق الإسلامي والدول الإفريقية والآسيوية هي هذه البلاد، فنشطوا في استكشافاتهم الجغرافية، ودراساتهم الاجتماعية واللغوية والثقافية وغيرها، وذلك من أجل:

1/ الاستطلاع على إمكانية استغلال الثروات الباطنية، والبشرية فيها، فمصانعهم ما تزال بحاجة إلى المواد الخام المتوفرة في العالم الإسلامي.

2/ الترويج للفكر الاقتصادي الغربي.

3/ تنفيذ مشاريعهم الاقتصادية المختلفة.

4/ تشجيع الصناعة في البلاد الإسلامية دون الاستعداد الكافي لها، وإهمال القطاع الزراعي¹.

وقد جاء في المذكرة التي رفعها جمع من العلماء سنة 1539م إلى المسؤولين في جامعة كامبردج والتي طالبوا فيها بإنشاء كرسي للدراسات العربية والإسلامية، ما يلي: "يضع المركز نصب عينيه خدمة مصالح الملك والدولة، وذلك بالعمل من أجل ازدهار تجارتنا مع الأقطار الشرقية،

¹ محمد البشير مغلي، مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط1، 2002م، ص 63.

وتوسيع حدود الكنسية في الوقت المناسب، ونشر الدين المسيحي بين أولئك الذين لا يزالون يتخبطون في ظلمات الجهل"¹.

لذلك فإن بعض أشهر البنوك الغربية (لويد، بنك سويسرا) تصدر تقارير شهرية هي في ظاهرها تقارير اقتصادية، ولكنها في حقيقتها دراسة استشراقية متكاملة حيث يقدم التقرير دراسة الأحوال الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للبلاد العربية الإسلامية، ليتعرف أرباب الاقتصاد والسياسة على الكيفية التي يتعاملون بها مع العالم الإسلامي².

ولذلك كانت المؤسسات المالية والشركات وكذلك الملوك في بعض الأحيان يزودون الباحثين بما يحتاجون إليه من مال، كما كانت الحكومات المعنية تمنحهم الرعاية والحماية³.

المبحث الرابع: نشاطات المستشرقين ووسائلهم.

لتحقيق الأهداف التي ذكرناها، اتجه المستشرقون إلى كل الوسائل التي من شأنها النيل من الإسلام والحضارة العربية والإسلامية ودراستها. وقد تنوعت تلك الوسائل والنشاطات، واختلفت باختلاف الزمان والمكان، ولعل من أبرزها:

1/ تأليف الكتب: تعددت مجالات التأليف في الدراسات العربية والإسلامية لدى المستشرقين، ونشير هنا إلى بعض المؤلفات ذات القيمة العلمية كنماذج، وهي كالتالي:

أ - تاريخ الأدب العربي: ألفه المستشرق (كارل بروكلمان) و يعد سجل للمصنفات العربية . المخطوطة منها المطبوعة وغير المطبوعة. ويكتمل بمعلومات عن حياة المؤلفين. وقد صدر هذا الكتاب أولاً في مجلدين عام 1897م و 1902م⁴.

¹ مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، المرجع السابق، ص 20.

² سعد آل حميد، المرجع السابق، ص 8.

³ محمود حمدي زقزوق، المرجع السابق، ص 88 - 90.

⁴ محمد فتح الله الزيايدي، الاستشراق أهدافه ووسائله، المرجع السابق، ص 114.

ب - دائرة المعارف الإسلامية: وقد تم إصدارها في طبعها الأولى بالإنجليزية والفرنسية والألمانية في الفترة ما بين عام 1913م و1938م، وقد تولت لجنة دائرة المعارف الإسلامية من خريجي الجامعات المصرية نقلها إلى اللغة العربية منذ عام 1933م.

لكن هذا العمل جاء نتيجة تخلي القادرين من المسلمين عن تأليف مثل هذا العمل المهم والضروري لكل أمة. فوجد المستشرقون ميدانا شاغرا واسعا لا يزاحم فيه أحد. فأنشأوا دائرة المعارف الإسلامية وأصدروها بعدة لغات، واستطاعوا أن يبثوا فيها ما شاءوا من سمومهم وأفكارها، ورغم ذلك مع الأسف فإن هذه الموسوعة تعتبر مرجعا هاما لكثير من مثقفي الأمة العربية والإسلامية حتى هذه الساعة¹.

ج - المعاجم اللغوية والموضوعية: ألف (جورج فيلهلم فرايتاج) القاموس (العربي - اللاتيني)، بالإضافة إلى عدة قواميس صغيرة من اللغة العربية إلى لغات أوروبية، مثل: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية وغيرها من اللغات الأوروبية².

وكذلك (أوجست فيشر) الذي ألف معجم اللغة العربية القديمة. ونخص بالذكر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف الذي يشمل كتب الأحاديث الستة المشهورة، بالإضافة إلى مسند الدارمي وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وقد تم نشره في سبعة مجلدات ضخمة في الفترة من عام 1936م إلى عام 1969م³.

ومن المعاجم التي وضعت لفهرست القرآن الكريم أيضا كتاب (نجوم الفرقان في أطراف القرآن) للمستشرق الألماني (فلوجل) وهو من أقدم المعاجم التي ظهرت في هذا الفن وقد طبع في (ليبسك) سنة 1842م. والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الذي وضعه لفييف من المستشرقين

¹ أنور الجندي، المرجع السابق، ص 154.

² مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، المرجع السابق، ص 26.

³ محمد فتح الله الزبدي، الاستشراق أهدافه ووسائله، المرجع السابق، ص 114.

ونشره المستشرقان (أ.ي. ونسك) و (ي.ب. منسج) أستاذًا العربية بجامعة (ليدن)، وهو معجم ضخّم لا غنى لأي باحث. في مجال السنة النبوية.. من الرجوع إليه¹.

هذه أمثلة قليلة ذكرناها اعترافًا بفضل المستشرقين ومساهماتهم الثمينة في جمع التراث العربي والإسلامي، والمحافظة عليه وتحقيقه وترجمته إلى لغاتهم، سواء كان بقصد خدمة الانسانية عامة أو بقصد إثراء الثقافة الغربية.

2/ جمع المخطوطات العربية والإسلامية: كان هذا العمل مبنيًا على وعي تام و إدراك عميق بقيمة هذه المخطوطات التي تحمل تراثًا غنيا في شتى مجالات العلوم والفنون. وبعد حملة نابليون على مصر عام 1798م تزايد نفوذ أوروبا في الشرق، ساعد ذلك على جلب كثير من المخطوطات العربية والإسلامية إلى أوروبا. وقد تم جمع المخطوطات من الشرق بطرق مشروعة أو غير مشروعة. إما بالشراء أو السرقة أو الاستيلاء عليها جبرًا.

يقول محمد فتح الله الزيايدي: "ولقد رأيت بنفسي كيفية الاعتناء بهذه الآثار، حتى رأيت ذات مرّة مستشفى للمخطوطات يعالج فيه كل مخطوط أصابه تمزق أو أخفى الدهر جزءًا من معالمه، وهذه بالطبع خدمة جليلة للتراث العربي، لأننا نحن العرب لم نستطع القيام بهذه الخدمة، ولولا جهود الغربيين في ذلك لضاع جزء كبير من تراثنا بين عابث لا يعرف قيمته، وغير مبال لا يهمله بقيت هذه النفائس أو ضاعت"². وقد قام (ألوارد) (Ahlwardt) بوضع فهرس للمخطوطات العربية الموجودة في مكتبة برلين في عشر مجلدات، بلغ الغاية فنًا ودقة وشمولاً.

والحق يقال: إن هذه المخطوطات العربية والإسلامية قد اهتم بها المستشرقون اهتمامًا بالغًا، وأولوا رعاية فائقة من الحفظ والعناية والفهرسة بأحدث الوسائل، مالا يوجد في البلاد العربية والإسلامية. ونشعر بالأسى والحسرة عندما ننظر إلى حال المخطوطات النادرة التي توجد في بعض البلدان العربية والإسلامية³.

¹ محمد فتح الله الزيايدي، الاستشراق أهدافه ووسائله، المرجع السابق، ص 112.

² محمد فتح الله الزيايدي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها، المرجع السابق، ص 110.

³ شاكر عالم شوق، المرجع السابق، ص 74.

3/ التحقيق والترجمة: استطاع المستشرقون أن ينشروا عددا كبيرا من المؤلفات العربية والإسلامية من كتب التراث محققة ومطبوعة على أيديهم. ونذكر على سبيل المثال المستشرقة (مارية نلينو) التي جمعت من متفرق شعر (النابغة الجعدي) وطبعته في ديوان مع ترجمته إلى الإيطالية، وكذلك المستشرق الألماني (رايسكة) الذي نشر بالعربية (تاريخ أبي الفداء) وترجمه إلى اللاتينية في خمسة مجلدات، ساعده فيها المستشرق (أدلر)، ونشر أيضا (نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلطين) (لمرعي بن يوسف)، ونقل إلى اللاتينية (مقامات الحريري) و(معلقة طرفة). والمستشرق النمساوي (برجشتال) الذي كتب بالألمانية (تاريخ الآداب العربية) في سبعة مجلدات ولم يتمه، وكتب (تاريخ الدولة العثمانية) في عشر مجلدات، ونشر كتاب (أطواق الذهب) (للزخشي) ورسالة (أيها الولد) (للغزالي). والمستشرق الألماني (كوزجارتن) الذي نشر بالعربية مجلدين من (تاريخ الطبري) ومجلداً من (الأغاني) مع ترجمتهما إلى اللاتينية. والمستشرق (ونشتاين) الذي نشر كتابين (للزخشي) هما (مقدمة الأدب) و(معجم العربية والفارسية)¹.

4/ إصدار المجلات: فالمستشرقون يصدرن المجلات العلمية السيّارة في كثير من بلدان أوروبا والشرق، التي تحتوي على كثير من البحوث والدراسات حول الإسلام وحول الشرق عموماً.

وقد زادت المجلات والدوريات الشرقية لدى المستشرقين على ثلاثمائة مجلة متنوعة خاصة بالاستشراق، تنشر بمختلف اللغات، وتتناول مباحثها: الشرق، في لغاته، وأديانه، وعلومه، وآدابه، قديماً وحديثاً².

ومن أشهر تلك المجلات: مجلة الجمعية الآسيوية الملكية بلندن، ومجلة الجمعية الشرقية الأمريكية، ومجلة جمعية الدراسات الشرقية. ومن أخطر المجلات ذات الطابع الاستشراقي والإلحادي مجلة (العالم الإسلامي) التي أنشأها عميد التبشير العالمي (صمويل زومر) عام 1911م، وللمستشرقين الفرنسيين مجلة تحمل نفس الاسم وتصدر بنفس الروح³.

¹ محمد فتح الله الزيايدي، الاستشراق أهدافه ووسائله، المرجع السابق، ص 113، 114.

² إسماعيل علي محمد، المرجع السابق، ص 79.

³ محمد فتح الله الزيايدي، الاستشراق أهدافه ووسائله، المرجع السابق، ص 97.

5/ دور النشر الاستشراقية: وتعدّ من أهم وسائل المستشرقين في إذاعة فكرهم الاستشراقي في العالم الغربي، وخارجه، والترويج للأبحاث، وكتب المستشرقين عن الإسلام والمسلمين خاصة والشرق عامة.

6/ إمداد الإرساليات التنصيرية: فالمستشرقون يقومون بإمداد الإرساليات التنصيرية بما تحتاج إليه من الخبراء، الذين يساهمون بخبراتهم وتجاربهم في هذا المجال. فالاستشراق عبارة عن هيئة استشارية عليا، تعمل على رسم الخطط وإعداد الدراسات والبحوث، التي يجدها المنصرون وسيلة جاهزة للعمل بقوة ضد الإسلام، محاولين بذلك وقف نشره وتوسعه. ولعله من العسير جدا الفصل بين الاستشراق والتنصير، لأن زعماء حركة الاستشراق هم أيضا أعضاء مرموقون في حركة التنصير. كما أنّ الاثنين كليهما يسيران بتوجيه واحد وخط سير واحد، مستمدين من الدوائر الاستعمارية والكنسية، ويتلقيان مواردهما المالية من مصدر واحد¹.

7/ إلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية: فهم يُستدعون لإلقاء المحاضرات والدروس في الجامعات العربية والإسلامية، ليتحدثوا عن الإسلام في ديار الإسلام بروح بعيدة عن الإسلام، محاولين بذلك توثيق علاقاتهم بها².

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي: "هذا من تقلبات الدهر وعجائب أمره، لقد مرّ على المسيحيين في أوروبا حين من الدهر كانوا يشدون فيه الرحال إلى الأندلس، ليتعلموا كتابهم المقدس. التوراة. من علماء المسلمين. أما الآن فقد انقلب الأمر رأسا على عقب حيث أصبح المسلمون. وأسفاه. يرجعون إلى أهل الغرب (أوروبا وأمريكا) يسألونهم: ما هو الإسلام وما تاريخه، وما هي حضارته؟ ليس هذا فقط، بل قد أصبحوا يتعلمون اللغة العربية منهم، ويستوردونهم لتدريس التاريخ الإسلامي"³.

8/ عضوية المجامع والمؤسسات العلمية الرسمية في العالم الإسلامي: يحاول المستشرقون الوصول إلى المجامع والمؤسسات العلمية الهامة في البلاد العربية والإسلامية، وذلك كتسلل بعض منهم

¹ مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، المرجع السابق، ص 24.

² المرجع نفسه، ص 25.

³ أبو الأعلى المودودي، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، دار القلم، الكويت، ط4، 1980م، ص 271.

ووصولهم إلى الجامع اللغوية، كالمجمع اللغوي في مصر، كان من أعضائه المستشرق جب (Gibb) والمستشرق فنسك (Fensink) والمستشرق ماسينيون (Masinyon) وكذلك في المجمع العربي العلمي بدمشق، وكان من أعضائه المستشرق الدانماركي بيدرسون (Pedrson) والمستشرق الإيطالي كيتاني (Ketani) والمستشرق الكولومبي جيتهل (Jotihel)¹.

ويعتبر التمثيل في هذه الجامع وسيلة لتحقيق أهدافهم حيث يعملون جاهدين على تحويل هذه الأهداف إلى مناهج براءة تتأثر بعناء البحث العلمي سواء في الدعوة إلى إحياء العاميات، أو الدعوة إلى تعديل النحو العربي، أو ما يسمى: اللغة الوسطى، أو الكتابة العربية المعاصرة، وكلها مجالات ترمي إلى إيجاد فجوة بين لغة القرآن، ولغة الكتابة².

9/ عقد المؤتمرات الاستشراقية: يعقد المستشرقون المؤتمرات الاستشراقية التي يتدارسون فيها كيفية تحسين خططهم وتطويرها، وفق ما يستجد من ظروف جديدة في الأوساط التي يعملون فيها. وقد بدأت هذه المؤتمرات منذ عام 1873م، ولا تزال تعقد دوريا إلى الآن في أماكن مختلفة من العالم³. يشارك فيها جمع غفير من المستشرقين من بلدان وجامعات شتى تناقش مئات القضايا والبحوث المتعلقة بالشرق في جوانبه، وخاصة ما يتصل بالدراسات الإسلامية⁴.

10/ تقلد المناصب الهامة وكراسي الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات:

إنّ المستشرقين يتقلدون بعض المناصب الهامة، ومنها كراسي الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الغربية حتى في بعض الجامعات العربية والإسلامية. لنشر أفكارهم، وتحقيق أغراضهم، خاصة من خلال إنشاء قسم للدراسات الإسلامية والعربية بالجامعات الغربية. ونظراً لأهمية التدريس

¹ محمد البهي، المرجع السابق، ص 538.

² مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، المرجع السابق، ص 47.

³ أنور الجندي، الإسلام في وجه التغريب: مخططات التبشير والاستشراق، دار الاعتصام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1978م، ص 153.

⁴ سعد آل حميد، المرجع السابق، ص 14.

الجامعي في نشر الفكر الاستشراقي، شهدت كثير من هذه الجامعات العربية والشرقية، عصرًا من المستشرقين هم رواد التدريس فيها¹.

ونذكر على سبيل المثال : (بلييه) الذي درّس في كلية الحقوق في الجزائر و(هوداس) الذي عيّن أستاذًا للغة العربية في الجزائر، و(هنري باسه) الذي عيّن مديراً لمعهد الدراسات العليا بالرباط وغيرهم الكثير².

ومن المعلوم أنه لا تكاد تخلو عاصمة من عواصم الغرب الآن من جامعة بها تخصص أو قسم خاص بالاستشراق عامة، وأحيانا تكون في بعض المعاهد أقسام مستقلة للدراسات الاستشراقية، وداخل هذه الأقسام والمعاهد في الغرب أقيمت أقسام وتخصصات في الدراسات الإسلامية على وجه الخصوص، ويتزعم هذه الأقسام المستشرقون عادة، كما يتولون فيها مهام التدريس والإشراف³.

¹ سعد آل حميد، المرجع السابق، ص 13.

² محمد فتح الله الزيايدي، الاستشراق أهدافه ووسائله، المرجع السابق، ص 49.

³ مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1976م، ص 13.

الفصل الثاني

مالك بن نبي ونقده

للاستشراق

المبحث الأول: مالك بن نبي حياته وتكوينه الفكري.

المطلب الأول: مولده ونشأته وتعليمه وهجرته.

هو مالك بن الحاج عمر بن الحضر بن مصطفى بن نبي ولد في السادس من ذي القعدة سنة 1323هـ¹، الموافق لكانون الثاني/يناير²، يقول عن نفسه: "كان مولدي في الجزائر عام 1905م بقسنطينة"³، وهو الابن الوحيد بالإضافة إلى ثلاث بنات ماتت إحداهن وهو صغير، تربي مالك في وسط عائلة فقيرة شديدة العسر، ولكنها أسرة متدينة ومحافظة، كان أبوه يعمل في وظيفة بسيطة في القضاء، بينما أمه كانت تمتهن الخياطة كي تساعد الأسرة.

نشأ في مدينة تبسة التي رحلت إليها أسرته للظروف الاستعمارية في تلك الفترة⁴، ثم تنبأه عمه الأكبر حتى توفي العم بقسنطينة، ونظرا للحياة البائسة والشديدة أعادته زوجة عمه إلى أهله بتبسة وقد ذكر ذلك في مذكراته حيث قال: "فقد بقي والدي ردحا من الزمن في تبسة دون مورد يعيش منه ودون عمل. لقد كانت هذه الفترة من حياة عائلتي شديدة العسر مات عمي الأكبر في قسنطينة وكان قد تنباني منذ أمد بعيد مما جعل زوجته تعيدني إلى أهلي في تبسة على الرغم مما خلف ذلك من أسى في نفسها ونفسي"⁵.

كان مالك بن نبي ملازما للصلاة منذ صغره يتردد على المسجد يقول: "منذ تلك الفترة بالذات بدأت أكثر من التردد على المسجد وخاصة أيام العطل. إذ كانت تلذ لي بصورة خاصة المشاركة في صلاة الجمعة، ففي هذه المناسبة فقط يسمح لي أن أرتدي قميصي الأبيض المزركش وبرنصي الصغير"⁶.

¹ جيلالي بوبكر، البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة، (د.ط)، 2010م، ص 17.

² عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2012م، ص 51.

³ مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط2، 1993م، ص 15.

⁴ المصدر نفسه، ص 22.

⁵ المصدر نفسه، ص 18.

⁶ المصدر نفسه، ص 25.

تلقي مالك تكوينه الأولي في تبسة، حيث كان يسكن مع والديه، فكانت الأسرة بداية تكوينه العلمي، فالمسجد والمدرسة تبعاً، وانتظم مالك بن نبي في مدرسة القرآن حين عودته إلى تبسة، واستمر في الدراسة في المدرسة القرآنية لمدة أربع سنوات، إلا أن تحصيله كان ضعيفاً جداً، حيث لم يتعلم في تلك المدة كلها سوى حزب سبح لله، ثم دخل المدرسة الفرنسية الوحيدة في بلده، حيث أوجدوا صفّاً رابعاً خصص للصغار من أبناء البلاد يقضي فيه الولد عدة سنوات، قبل أن يلحق بالصفوف العادية، عقب امتحان يقرر ما إذا كان على التلميذ أن يدخل الصف الثاني أو الثالث. وكان له حظ الدخول في الصف الثالث¹.

وبعد نجاحه في المرحلة الابتدائية سنة بدرجة جيد، رحل مع والده إلى قسنطينة لاستكمال دراسته في المرحلة التكميلية في قسنطينة في مدرسة سيدي الجلي². ودرس في تلك المرحلة على يد الشيخ عبد المجيد الذي كان يعطي دروساً في النحو في المسجد³، ثم دخل المدرسة الثانوية بعد تجاوزه الامتحان بنجاح فقد كان عليه أن أيدخل امتحاناً خاصاً⁴.

بعد أن حصل مالك بن نبي على الشهادة الثانوية من المدرسة الفرنسية في الجزائر هاجر إلى فرنسا لمواصلة دراسته في معهد الدراسات الشرقية بباريس، لكنه لم ينجح، رغم أنه لم يجد أي صعوبة في الاختبارات، لأن الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع - بالنسبة لمسلم جزائري - لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي⁵. فاضطر إلى التسجيل في مدرسة اللاسلكي، فأخذ دروساً ليلية في الكيمياء التطبيقية بمعهد تابع لمتحف الفنون والصناعات بباريس، وتخرج مهندساً كهربائياً عام 1935م.

درس مالك أيضاً علم الاجتماع، والفلسفة والتاريخ وكان ميالاً للثقافة العربية الإسلامية، ولقد تأثر مالك بن نبي في تكوينه الفكري والعلمي بكتابات رواد التجديد والنهضة قبله مثل كتاب "أم القرى" لعبد الرحمن الكواكبي، و "رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده، ورواد الإصلاح في الجزائر

¹ مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، المصدر السابق، ص 24.

² المصدر نفسه، ص 42.

³ المصدر نفسه، ص 47.

⁴ المصدر نفسه، ص 51.

⁵ المصدر نفسه، ص 216.

بصفة خاصة، وفي بلاد المغرب العربي الاسلامي بصفة عامة، إضافة إلى قراءته للأدب العربي القديم والحديث، والأدب الفرنسي والغربي عامة، كل هذا بدوره ساعد مالك بن نبي في اكتساب مكانة فكرية وأدبية ولغوية مكنته فيما بعد في التأليف والكتابة باللغتين العربية والفرنسية معا¹. كما كانت للمالك عدة رحلات علمية إلى العالم العربي حيث قام سنة 1959م بزيارة كل من سورية، ولبنان والسعودية، والكويت، وليبيا، واستقر بالقاهرة حتى سنة 1963م².

المطلب الثاني: مكونات شخصيته ومصادر فكره.

1- البيئة العائلية: كانت جدة مالك بن نبي لأمه من مصادر تكوينه وهي المدرسة الأولى التي تكونت فيها مداركه، فكانت تأثر عليه من خلال القصص التي كانت تحكيها لأحفادها، والتي تعتبر دروسا في التربية والأخلاق. يذكر مالك أن جدته "الحاجة زوليخة" كانت تقص عليهم القصص فتشدهم إليها ببراعتها في رواية الحكايات التي كانت تدور حول جرائم الاستعمار، والعمل الصالح وما يترتب عنه من ثواب، يقول مالك: "أنا ابن السادسة أو السابعة من عمري أقوم بعمل ربما كان على ما أعتقد أسمى ما قمت به في حياتي"، أما جدّه لأبيه فيبدو أنّه أثر فيه تأثيرا خاصا تمثل في الكره المبكر للاستعمار وضرورة العمل على إحباط مساعيه ومؤامراته. أما والدا مالك بن نبي فقد حرصا على تكوين ابنهما دينيا إسلاميا، فأمه اضطرت ذات يوم أن تدفع لمعلم القرآن الذي يُدرس ابنها بدل المال سريرها الخاص بعدما فقد أبوه عمله³.

2- التكوين من المدرسة وتأثير الأساتذة: بدأ مالك بن نبي الدراسة أولا كما سبق في المدرسة القرآنية في تبسة ثم المدرسة الفرنسية وبعدها انتقل للمرحلة الثانوية الفرنسية في قسنطينة، فقد كانت له الفرصة أن يتشبع من ثقافتين مختلفتين ويتكون تكوين إسلامي من طرف معلمين أصحاب ثقافة عربية إسلامية، وتكوين غربي من طرف معلمين ذوي الثقافة الفرنسية الغربية. ومن هؤلاء المعلمين الشيخ مولود بن موهوب علمه علم الكلام وسيرة رسول الله ﷺ، كما درسه بعض المدرسين

¹ جيلالي بوبكر، البناء الحضاري عند مالك بن نبي، المرجع السابق، ص 17.

² زكي ميلاد، مالك بن نبي مشكلات الحضارة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1998م، ص 50.

³ مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، المصدر السابق، ص 19.

الفرنسيين "مسيو مارتان" الذي كان له الأثر البالغ في امتلاك مالك زمام اللغة الفرنسية، وحب المطالعة وفن التعبير و"بوبرتي" علمه التاريخ والأدب الفرنسي¹.

3- القراءات العربية والغربية: لقد كانت قراءات مالك بن نبي متنوعة بين ما كتب بالعربية وما كتب بالفرنسية فمن الأولى كتابان كان لهما الأثر البالغ حتى أصبح يقر بأنه مدين لهما في التحول الفكري لديه وتصحيح مزاجه. كتاب أحمد رضا "الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق"، و "رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده². بالإضافة إلى الأثر العميق لكتاب "أم القرى" لعبد الرحمان الكواكبي³. وغيره من كتب التراث الإسلامي. أما الكتابات الفرنسية فقد طبع الأستاذ (مسيو مارتان Jules Martin)، في نفسه تذوق القراءة وفن الكتابة. وأتاح له أن يقرأ كل كتب (جول فيرن Jules Verne)، وبعضاً من روايات (الرداء والسيف)⁴. ويقول مالك ولقد قرأت مؤلفات (بييرلود Pierre Loti)، و(كلود فارير Claude Farrère)، و(لازياد L'Azyade)، و(فاقدات السعادة Les Desenchantées)، و (L'homme qui assassina الرجل الذي اغتال)⁵. كذلك كتب الأب "مورو" التي فتحت لمالك بن نبي باب عالم جديد يخضع فيه كل شيء إلى القياس الدقيق للكم والكيف⁶.

4- دور الصحافة في تكوين فكره: كان مالك من المهتمين بقراءة الصحف والمجلات وكان لها أثرا في فكره وشخصيته ومن هذه الصحف صحيفة "الإقدام" التي كان يصدرها الأمير خالد التي كانت تكشف عمليات استغلال الفلاح الجزائري، وصحيفة (الراية L'étendard) التي كان يصدرها (دندان)، والصحيفة التونسية (العصر الجديد) التي تخصصت بشؤون العالم الإسلامي⁷، ومن المجلات المجلات نجد مجلة "كونفيرانسيا conferencia"، ومنها عرف مالك الشاعر الهندي "رابندرانت

¹ مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، المصدر السابق، ص 47، 48.

² المصدر نفسه، ص 66.

³ المصدر نفسه، ص 87.

⁴ المصدر نفسه، ص 48.

⁵ المصدر نفسه، ص 64.

⁶ المصدر نفسه، ص 219.

⁷ المصدر نفسه، ص 83.

طاغور" الذي أثر فيه تأثيرا خاصا إلى جانب "فيكتوهيجو"، و"امرؤ القيس"، وجريدة "العصر الجديد" المتخصصة في شؤون العالم الإسلامي بالإضافة إلى مجلة "المعلمين الجزائريين" التي كانت تصله إلى باريس¹، وغيرها من المنشورات.

المطلب الثالث: مشروعه وإنتاجه الفكري، ووفاته.

أ- مشروعه: يعد مشروع مالك بن نبي "المشروع الحضاري" أحد أبرز المشاريع التي حفل بها العالم الإسلامي في العصر الحديث الذي عرض "بن نبي" من خلاله رؤيته التغييرية في سلسلة مؤلفات وسماها بـ "مشكلات الحضارة" شخّص فيها واقع الأمة الإسلامية، وقدم بديلا حضاريا رام من خلال توظيفه تغيير حال الأمة من النكوص إلى النهوض والريادة والقيادة.

تتجلى هذه الرؤية من خلال الاطلاع على أهم كتبه وهي: شروط النهضة، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة، ميلاد مجتمع، وجهة العالم الإسلامي².

تستوقفنا عند قراءة هذه الكتب رؤيته للخروج من المأزق الحضاري الإسلامي ويمكن إجمالها في التالي:

- إعادة الاعتبار للإنسان بوصفه محورا للحضارة.
- تفعيل دور العقل جنبا إلى جنب مع وظيفة النص في البناء الحضاري.
- تأسيس البناء الحضاري على الأخلاق كعامل حاسم في كل قرارات الأمة وأنشطتها.
- التربية السليمة على أساس متين من الدين.
- إعادة اعتبار الفن والجماليات في الحضارة الإسلامية بعيدا عن التعصب المبدئي ضد الفن.
- إشراك المرأة في بناء الحضارة، باعتبارها أساس التربية في المجتمع، بعيدا عن المواقف الفقهيّة الظالمة بحق المرأة.

¹ مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، المصدر السابق، ص 91، 125، 309.

² عمران بودقزدام، (المشروع الحضاري عند مالك بن نبي: رؤية تكاملية)، مجلة دراسات إسلامية، الجزائر: مركز البصيرة للبحوث والاستشارات، الجزائر، جوان 2012م، المجلد 7، العدد 2، ص 09.

- الانفتاح دون ذوبان، والأصالة دون تحجر¹.

ب- إنتاجه الفكري: أدى تنوع ثقافة مالك بن نبي إلى تنوع كتاباته باللغة العربية وباللغة الفرنسية التي كان لها الحظ الأكبر، وترجمت أغلب أعماله إلى اللغة العربية، وكانت مؤلفات متنوعة على شكل كتب ومقالات ومحاضرات، صدر أغلبها في حياته وأخرى بعد وفاته، وأهم مؤلفاته المطبوعة:

الظاهرة القرآنية 1946م، لبيك (رواية) 1947م، شروط النهضة 1958م، وجهة العالم الإسلامي 1954م، فكرة الافريقية الآسيوية 1956م، النجدة الشعب الجزائري يباد 1957م، حديث في البناء الجديد 1960م، مشكلة الثقافة 1959م، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة 1960م، الصعوبات علامة النمو في المجتمع العربي 1960م، الاستعمار يلجأ إلى الاغتيال برسائل العلم 1960م، فكرة كمنولث إسلامي 1960م، تأملات في المجتمع العربي 1961م، في مهب المعركة 1961م، ميلاد مجتمع 1962م، آفاق جزائرية 1964م، مذكرات شاهد للقرن "قسم أول" 1965م، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث 1969م، مذكرات شاهد للقرن "القسم الثاني" الطالب 1970م، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي 1971م، المسلم في عالم الاقتصاد 1972م، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين 1977م، بين الرشاد والتية 1978م².

أما المخطوط منها: خطاب مفتوح لخرونشوف وايزنهاور، مجالس دمشق "مخطوط"، مولد مجتمع إسلامي (مخطوط)، مجالس تفكير يسجل بعضها في أثناء مجالسه أو ندواته، مذكرات شاهد للقرن "القسم الثالث" مخطوط، العلاقات الاجتماعية وأثر الدين فيها، نموذج لمنهج ثوري باللغة الفرنسية، كتاب حول مشكلة اليهود، العفن 1951م، وقد كتبه أواخر حياته بالفرنسية، وقد طبع الجزء الأول منه وترجم إلى العربية سنة 2007م. اليهودية أم النصرانية، دراسة حول النصرانية³.

¹ سعد الدين ابوه: (المشروع الحضاري لمالك بن نبي)، بحث منشور على شبكة الأنترنت، (<https://omran.org/ar>)، تاريخ الاطلاع: 2022/05/10م.

² عبد الله بن حمد العويسي، المرجع السابق، ص134، 138.

³ العابد ميهوب: الفكر التربوي عند مالك بن نبي، مذكرة دكتوراه في علم الاجتماع تخصص علم الاجتماع التربوية، غير منشورة، جامعة محمد خيضر، بسكرة: كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، 2014/2013م، ص 94، 95.

ج- وفاته: أصاب مالك بن نبي مرض السرطان في الدماغ واشتد به المرض¹ إلى أن توفي رحمه الله تعالى يوم الأربعاء 04 من شوال 1393هـ، الموافق لـ 31 أكتوبر عام 1973م، وهو في 68 من عمره، تاركاً خلفه حياة مليئة بالنضال السياسي والفكري ودعوة قوية إلى الحضارة وإلى التجديد². وهذا الذي سيبقي ذكره منيرة وخالدة بين العلماء والباحثين وطلبة العلم في سائر المعمورة.

المبحث الثاني: الاستشراق عند مالك بن نبي.

تمهيد:

إنّ الفكر العربي المعاصر، يبدو مشدوداً إلى المادة الاستشراقية ورموزها، فتعددت تبعاً لذلك الردود وتلونت الكتابات العربية في الاستشراق على غرار أنور عبد الملك، وعبد الله العروي، والطيب تيزيني، ونديم البيطار، ومحمد أركون، ومحمد عابد الجابري، وهشام جعيط، وعبد المجيد الشرفي³. وسنولي اهتمامنا في هذا المبحث بمالك بن نبي، نظراً إلى علاقته بالفكر العربي والغربي باعتباره علماً من أعلام الفكر العربي المعاصر، اهتم بالاستشراق موضوعاً ومنهجاً.

من المؤكد أن سيرة الرجل الذاتية كشاهد على عصر الاستعمار في البلدان العربية، وفي الجزائر بالذات، عاين هول الممارسات العنصرية للاستعمار الفرنسي والمسح المعرفي والثقافي للبلد، تركت في ذاكرته انطباعات وصوراً عن الأعمال اللاإنسانية للمستعمر، ذاك الاقتلاع الممنهج للجذور التاريخية والحضارية للبلد الذي يرفض أهله الاستعباد والاستبداد من مُحتل، جاء مدججاً بالتقنية والعلم والهيمنة في تغيير البوصلة الفكرية للمجتمع، هنا يمكن القول إن عمق أفكار مالك بن نبي لا يقتصر على الوطن الأم، داعياً للوحدة بين الأمم التواقّة للتحرر والانعقاد في أفق أن يقتنع المستعمر بالرفض كنتيجة حتمية للثقافة الدخيلة بالقسر والإكراه. أما الجانب الآخر الأساسي للمعرفة في قضية الاستشراق، فهي الرغبة التي كانت تحدو مالك بن نبي للالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية في باريس،

¹ عبد الله بن حمد العويسي، المرجع السابق، ص 138.

² جيلالي بوبكر، المرجع السابق، ص 19.

³ الساسي بن محمد الضيفاوي: (الرد على الاستشراق في الفكر العربي المعاصر)، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، قسم الدراسات الدينية، ص 1. بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://www.mominoun.com>)، تاريخ الاطلاع: 2022/04/27م.

غادر البلد لأجل الدراسة في باريس زمن الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي. يدرك للوهلة الأولى مدى البؤس الشاسع بين فرنسا الحضارة والثقافة في بلدها، وفرنسا في بلاد المستعمرات، سؤال لا يمكن أن يقفز للذهن إلا للذين يحملون قلقاً وحباً للوطن وعشقاً للحرية¹.

فالشعور الذي يصيب المرء في خيبة الأمل من ولوج معهد الدراسات الشرقية، كان واقعا، بعد اجتياز الامتحان، كانت النتيجة سلبية بالتمام، وليس هذا كل ما في الأمر، يقول مالك بن نبي: "لقد طلبني مدير المعهد، وفي هدوء بمكتبه الوقور، شرع يشعري بعدم الجدوى من الإصرار على الدخول إلى معيحه، فكان الموقف يجلي لنظري بكل وضوح هذه الحقيقة: أن الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع - بالنسبة لمسلم جزائري - لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي"²، يدرك مالك بن نبي للتو أن المسألة لا تخلو من نوايا مبطنة وتعليل غير مقنع إذا رمنا العلاقة بين المعرفي العلمي والسياسي.

يحمل مالك بن نبي سخطاً بالغاً على الاستعمار والمخططات الاستشراقية في تغيير هذا العالم الإسلامي من حضارته الضاربة جذورها في التاريخ إلى مجتمعات خنوعة. وكيانات لإنتاج المواد الأولية، لم يكن الرجل في غفلة عن الأحداث في العالم، دراسته في فرنسا فسحت مجالاً للمعرفة الواسعة للخطاب المهيم والمسيطر على الآخر³.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالرجل قد استلهم أفكاره من مصادر متنوعة على نحو علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ.

المطلب الأول: مفهوم الاستشراق وأصناف المستشرقين وتأثيرهم عند مالك بن نبي.

خلف لنا الأستاذ مالك بن نبي كتباً كثيرة أهمها كتابه عن الاستشراق: (إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث) ولم يعتن بالاستشراق كفكرة، بل أراد أن يدرس العامل النفسي، لحملة

¹ أحمد شحيمط: (الاستشراق والقابلية للاستعمار في فكر مالك بن نبي)، بحث منشور على شبكة الأنترنت <https://www.b-sociology.com>، تاريخ الاطلاع: 2022/04/18م.

² مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، المصدر السابق، ص 216.

³ أحمد شحيمط، الاستشراق والقابلية للاستعمار في فكر مالك بن نبي، المرجع السابق.

فكر الاستشراق¹، وهم المستشرقون (الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية)²، ثم قام بعد ذلك بتصنيفهم من خلال أسمائهم إلى طبقات من صنفين:

أولاً: من حيث الزمن:

أ/ طبقة القدماء: مثل جرير ودوربيك، والقديس توماس الاكوييني.

ب/ طبقة المحدثين: مثل: كاره دوقو، وجولدتسهير.

ثانياً: من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتاباتهم:

أ/ طبقة المداحين للحضارة الإسلامية.

ب/ طبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها³.

والملاحظ في هذه الخارطة العامة للمستشرقين أنه ركّز على الفرنسيين منهم، وذلك لاتصاله بهم فكرياً وواقعياً في فرنسا. وأما في توزيعه الثاني، فكان الأمر أعمّ، وذلك لأنهم في جميع أنحاء العالم، إمّا مداحين أو ناقدين.

إن الذي يمكن أن نستشفه هو منهج الكاتب التفصيلي الذي يقوم على تعريف الاستشراق ثم تقديم تصوّر معين له، توخى فيه مالك بن نبي منهجاً تصنيفياً فمّن وجهة نظر تاريخية:

1/ الأقدمون: من أمثال دوربيك (Jerbert.D) وتوماس الإكوييني (d'Aquin Thoma) الذين "أثروا وربما لا يزالون يؤثرون على مجرى الأفكار في العالم الغربي دون أيما تأثير على أفكارنا، نحن معشر المسلمين... بينما لا نرى لهم أي أثر فيما نسميه النهضة الإسلامية اليوم"⁴، ولقد ساهمت مؤلفاتهم في الإعداد لعصر النهضة الأوروبية⁵.

¹ حسن موسى محمد العقبي: مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة، مذكرة ماجستير، غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة فلسطين: كلية أصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، 2005م، ص 90.

² مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1969م، ص 05.

³ حسن موسى محمد العقبي، المرجع السابق، ص 05.

⁴ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 06.

⁵ عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، مطبعة بن مرابط، وهران، الجزائر، (د.ط)، 2014م، ص 129.

2/ المحدثون والمنتقدون المجادلون المزدرون من أمثال: كاره دوكر (Devaux Carra) وجولدتسهير (Goldziher) والأب لامانس (Père Lamens) لم يستطيعوا أن يؤثروا على أفكارنا نظراً لتلقائية الدفاع عندنا تجاه هذا النوع من الأدب الاستشراقي، ويضرب هنا مثلاً بكتاب الشعر الجاهلي الذي ألفه الأديب المصري (طه حسين) بإيحاء من المستشرق السويدي مرجليوث (Margouliouth) والذي صادف موجة من السخط وجلب الصواعق المنتقمة والمنطلقة من قلم الأديب المصري مصطفى صادق الرافعي رحمه الله. "المنتقدين على الحضارة الإسلامية المحدثين حتى ولو كان لهم بعض الأثر في تحريك أقالمنا أو كان لهم بعض الصيت في زمنهم وبلادهم مثلاً الأب (لامانس)، إنهم لا يدخلون في موضوع بحثنا لأن إنتاجهم، على فرض أنه مسّ ثقافتنا إلى حد ما، إلا أنه لم يحرك ولم يوجه بصورة شاملة مجموعة أفكارنا، لما كان في نفوسنا من استعداد لمواجهة أثره تلقائياً، مواجهة تدخلت فيها عوامل الدفاع الفطرية عن الكيان الثقافي"¹.

فمالك بن نبي قد كان مصيباً في ذلك؛ لأن كل مواجهة واضحة يفهم منها الطعن في الإسلام ستحرك أقالم كل المفكرين والكتّاب للدفاع عن الإسلام، فهذه حرب ظاهرة وواضحة ومكشوفة وليس فيها خطورة كبيرة.

3/ المدافعون والمادحون للإسلام والمسلمين والعرب والحضارة الإسلامية: وهم الذين يخصص لهم الأستاذ مالك بن نبي دراسته، وذلك لأنهم لم يلقوا أي مقاومة وكانت لهم آثار معتبرة مكنتهم من مخادعة نسقنا الدفاعي. فهو يحذر منها تحذيراً كبيراً، ويعتبرهم أخطر من الناقدين وسبب ذلك أنهم يدخلون أفكارهم المسمومة ضمن مديحهم، ويتقبلها المسلمون دون إدراك أو وعي حيث "نجد للمستشرقين المادحين الأثر الملموس، الذي يمكننا تصوره، بقدر ما ندرك أنه لم يجد في نفوسنا أي استعداد لرد الفعل، حيث لم يكن هناك في بادئ الأمر مبرر للدفاع الذي فقد جدواه وكأنما أصبح جهازه معطلاً لهذا السبب في نفوسنا"².

ويرى مالك بن نبي أن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها:

¹ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 06.

² المصدر نفسه، ص 07.

1/ مرحلة القرون الوسطى قبل توماس الإكوييني وبعده، وكان همّها الوحيد هو اكتشاف الفكر الإسلامي وهضمه وترجمة مؤلفاته، وقد حققت نهضتها وسدّدت خطاها على ضوء هذا الإرث واهتدت إلى ذلك منذ أواخر القرن الخامس عشر.

2/ أما المرحلة الثانية فهي المرحلة العصرية الاستعمارية، أصبحت تبحث عن الفكر الإسلامي بغية تكييف ثقافتها أو سياستها على الأقل كي تصبح ملائمة أكثر، وذلك بمعرفة أحسن لثقافات الشعوب المستعمرة¹ "لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها"²، وهي نظرة تشي بالمنافحة والافتخار باعتبار أن المرحلة الأولى هي نفعية استفادت منها أوروبا وبنّت على أسسها حضارتها ونهضتها، وأنّ منطلق الغرب هو الشرق وهذا لا يخلو من مبالغة، وأما المرحلة الثانية فهي مرحلة استعمارية هدفها ابتزاز المنطقة مادياً ومعنوياً³.

وقد نبّه مالك بن نبي لدهاء المستشرقين وحيلهم، فيرى أن مدح بعض المستشرقين لنا قد يكون له تأثير تخديري علينا مما جعلنا نغمض عيوننا مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة، التي تذكرنا بالعزّ الذي كان، فنركن إلى ذلك ونعتمد على مجد آبائنا وأجدادنا، ونظن أننا عظماء لأن أجدادنا كانوا كذلك، فنحن نغلق أجفاننا على صورة ساحرة حاملة لماضٍ مترف "ولاشك أن أولئك الماهرين في فن القصص قد قصوا للأجيال المسلمة في عهد ما بعد الموحدين قصة ألف ليلة وليلة وتركوا بذلك أثر كل سمر، نشوة تخامر مستمعهم حتى يناموا فتغلق أجفانهم على صورة ساحرة لماضٍ مترف. ولكن سوف تستيقظ هذه الجماهير في الغد فتفتتح أبصارهم من جديد على مشهد الواقع القاسي"⁴، وتحدث الصدمة بمجرد أن تستيقظ على ذلك المشهد القاسي، من وجع وألم ومجاعة وحرمان وفقر مدقع وبطالة وأوبئة وحكم شمولي وأمّية...، ويعتقد أن المدح و التمجيد لماضيينا هما من الوسائل التي شغلنا عن أمّ مشكلاتنا، لأن المدح والتمجيد يستخدمهما المستشرقون، لتخدير مشاعر وأحاسيس المجتمع الإسلامي، وهو الأمر الذي آل بنا إلى الاهتمام بمشاكل وهمية وحلول وهمية، وفي

¹ عبد اللطيف عبادة، المرجع السابق، ص 129.

² مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 09.

³ الساسي بن محمد الضيفاوي، المرجع السابق، ص 04.

⁴ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 13.

أحسن الأحوال نفع في صراع داخلي بين الوافد والمحلي، وبين الأصول والفروع، فيتقدّم الآخر أين نتأخّر نحن¹.

المطلب الثاني: أهداف الاستشراق عند مالك بن نبي.

1/ الهدف العلمي:

يرى مالك بن نبي أن الاستشراق في بدايته دَرَسَ الفكر الإسلامي؛ لتحقيق الهدف العلمي فيقول: "إن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي ... فكانت في مرحلة القرون الوسطى، قبل وبعد (توماس الإكوييني)، تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها، بالطريقة التي أتاحت لها فعلاً تلك الخطوات الموفقة، التي هدّتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر"².

"ولقد اعترف المستشرقون المعتدلون بفضل الشعوب الإسلامية، وبمساهمتها في تكوين الرصيد الحضاري الإنساني، من خلال مجهودات العلماء المسلمين"³.

ثانياً : الهدف الديني: يرى مالك بن نبي أنّ هذا الهدف كان وراء نشأة الاستشراق ، وقد صاحبه خلال مراحل الطويلة:

1/ "التشكيك في صحّة رسالة النبي ﷺ وذلك عن طريق الطعن في ظاهرة الوحي واعتبار أنها ذاتية وما هي إلاّ إلهام نفسي أو هواجس داخلية تملك ذات محمد فقال ما قال، وليس هناك وحي خارجي، وأنها ما هي إلا مظاهر اختلاط وهلوسة"⁴.

2/ "التشكيك في صحّة القرآن وإرجاع الإسلام كلّه إلى مصادر نصرانية ويهودية، فقد ادعى اليهود والنصارى أن محمداً ﷺ قد أخذ القرآن من الكتاب المقدّس، حيث قام الآباء اليسوعيون

¹ الساسي بن محمد الضيفاي، المرجع السابق، ص 04.

² مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 08، 09.

³ المصدر نفسه، ص 09.

⁴ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية ، ط4، 2000م، ص 161.

بأبحاث لكي يحددوا مدى مساهمة شعراء النصرانية في الجاهلية في التأثير اليهودي والمسيحي في الحياة الجاهلية ومن ثمّ في القرآن الكريم وفي الإسلام¹.

ثالثاً: الهدف السياسي:

أما بالنسبة للهدف السياسي فينبّه مالك بن نبي من استغلال ما ينتجه العقل قائلاً: "ولكننا نغفل جانباً أساسياً في الموضوع إذا لم نأخذ في حسابنا أن كل ما ينتجه العقل في هذا القرن العشرين الخاضع لمقاييس الفعالية، لا يخلو من بُعد عملي قد يستغل في ميدان السياسة"².

وهو بهذا يؤكّد أن هناك عامل سياسي يوجّه إنتاج المستشرقين بحيث تسخر للصراع الفكري، حيث يصبح إنتاجهم أدوات للمشاغبة، والتحلل الأخلاقي، "إن الكتب، بغاليتها وتافهها، تقع بمجرد خروجها من الطبع، وتقع أحياناً دون أن يشعر أصحابها في أيدي أخصائيين يُسَخِّرونها للصراع الفكري، فيصيرونها أدوات للمشاغبة، ولتحلل الأخلاقي، أو مجرد أدوات إلفات وتلهية"³.

ويوضّح مالك بن نبي أن هذا الهدف لم يكن من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية لتسيطر بشكل قوي على العالم الإسلامي، "وفي المرحلة العصرية والاستعمارية فإنها تكتشف الفكر الإسلامي مرّة أخرى لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها"⁴.

¹ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص 257.

² مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 42.

³ المصدر نفسه، ص 42.

⁴ المصدر نفسه، ص 09.

المبحث الثالث: موقف مالك بن نبي من الاستشراق.

تمهيد:

كما أن هناك متخصصون في الذرة والإلكترون، يوجد متخصصون في الصراع الفكري، وكما توجد حرب أسلحة وذخائر، توجد أيضًا حرب أقلام وأحبار تسبقها بمراحل وتشرعنها، وهي أشد وطئًا من أي حرب حسية، فمن يؤثر على أفكار الناس يستطيع بالبداية السيطرة عليهم وعلى كل ما يملكونه.

وقد كتب فيلسوف الحضارة مالك بن نبي كتيبًا لا يتجاوز خمسين صفحة مكثفة كعادة جميع كتبه، لخص فيه رأيه في إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، وناقش موضوع الصراع الفكري الذي تسببوا فيه وأثره وطلاله على من تتلمذ على أيديهم من المسلمين وخذوا حذوهم، وقد بني الكتاب على قاعدة يعرفها مُتخصِّصُ الصراع الفكري كما يعرفون أبناءهم ألا وهي: "أن كل فراغ أيديولوجي لا تشغله أفكارنا، ينتظر أفكارًا منافية، معادية لنا"¹.

المطلب الأول: تحديد المشكلة الاستشراقية ومعالجة مالك بن نبي لها.

قسّم المرحوم مالك بن نبي العوالم إلى ثلاثة: وهي (عالم الأشخاص) و(عالم الأشياء) و(عالم الأفكار) ويرى أن (عالم الأفكار) أكثرهم ديمومة وبقاء، وضرب مثالاً بنشوء دولة الإسلام حيث أشيع في إحدى الغزوات أن الرسول ﷺ قُتل، فجاء القرآن يقرع الصحابة ويقول لهم إن محمدًا ما هو ﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾²، بهذه الآية يخرجون من (عالم الأشخاص) وهو شخص الرسول ﷺ إلى (عالم الأفكار) وهو ما جاء به الرسول ﷺ، وقيمة أي مجتمع في نظره بعدد الأفكار التي ينتجها لا الأشياء والأشخاص.

وكان دائمًا ما ينتقد تكديس الأشياء التي أصبحت ظاهرة في العالم العربي والإسلامي والتّركيز على بناء السّكن لا السّاكن، في محاولة بائسة لبناء شبه حضارة ويكون تقدم أي مجتمع مرهونًا بحجم

¹ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 45.

² سورة آل عمران، 144.

الأفكار التي ينتجها، والأفكار هي ما تنتج كل شيء، كنموذجي ألمانيا واليابان حيث تدمر (عالم الأشياء) لكن (الأفكار) بقيت، فعادوا كما كانوا، وفي وقت وجيز.

فالمشكلة الأولى عند مالك بن نبي هي مشكلة الأفكار فبعد أن حدّد المشكلة وحكم على أطراف الصراع الفكري، يعود إلى الحل الذي وضعه أو يراه مناسباً وهو أنه "علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي"¹.

ويضيف "إن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية، لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه، ولن يمكن لمجتمع في عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج"².

فبعد تعريفه للمستشرقين بأنهم "الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية".

يقول مالك بن نبي: "ثم علينا ان نصنف أسماءهم في شبه ما يسمى "طبقات" على صنفين:

أ/ من حيث الزمن: طبقة القدماء، وطبقة المحدثين.

ب/ من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين وكتاباتهم: طبقة المادحين، وطبقة المنتقدين"³.

ويبدو أن هذا التصنيف الذي وضعه مالك بن نبي يراه ضرورياً لإقامة أي دراسة حول الاستشراق فيقول: "هكذا وعلى الترتيب يجب أن تقوم كل دراسة شاملة لموضوع الاستشراق"⁴.

فالمشكلة الاستشراقية التي عاجلها المفكر مالك بن نبي هي أن المادحين للحضارة الإسلامية من المستشرقين هم أكثر خطراً من غيرهم وأكثر تأثيراً في الوسط الفكري الإسلامي. حيث أن هذا النوع من الاستشراق يجعل من المفكر الإسلامي يعجب بتراثه بعيداً عن عصره "عصر الفعالية

¹ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 48.

² المصدر نفسه، ص 48.

³ المصدر نفسه، ص 05.

⁴ المصدر نفسه، ص 06.

والميكانيك" كما يسمّيه مالك بن نبي، فهو يرى أن هذه الملاحظة ليست شيئاً عابراً "نمر عليه في هذا العرض مرّ الكرام، بل يجب أن نقف عندها بكل اهتمام وتأمل... وهنا تجب كلمة عن هذا المفهوم الذي نعنيه بـ (الصراع الفكري) في العالم الإسلامي، يجب أن نقرّر مبدئياً هذه القاعدة العامة، ألا وهي أنه عندما يطرح مسلم أو بعض المسلمين مشكلة ما تهم مجتمعهم، فإن هذه المشكلة تكون قد طرحت أو ستطرح عاجلاً في أوساط المختصّين في هذه الدراسات لحساب وتحت إشراف الاستعمار"¹.

ويرى مالك بن نبي أن هؤلاء الاخصائيين يكمن عملهم في أنه كلما تقدّم مفكر مسلم في حل مشكلة معيّنة يسرعون "لدراسة هذا الحل، فإن كان خاطئاً، زادوا في شحنة خطئه بطريقة أو أخرى، وإن كان فيه بعض ما يفيد حاولوا كلّ جهدهم للتقليل من شأنه، وتخفيض قيمته حتى لا يفيد"².

ويركّز مالك بن نبي على هذه القاعدة حيث يقول: "هذه هي القاعدة العامة التي يجب أن نجعلها نصب أعيننا: أننا كلما طرحنا مشكلة وعرضنا لها حلاً من الحلول فإن قادة الصراع الفكري يأتون على الفور بما يلفت عنه الأبصار أو ما يزيّفه تزييفاً"³، ووفقاً لجهود هؤلاء "يبقى الضمير الإسلامي في دوامة صراعه الباطن يُسكّنه أحياناً ما يكتبه المادحون، ويثيره أحياناً أخرى ما ينتجُه المفنّدون... مستهلكاً أجدى الطاقات الفكرية في العالم الإسلامي، من دون جدوى، من دون أي تأثير حقيقي على تطور العقلية الإسلامية"⁴.

المطلب الثاني: نقد مالك بن نبي للاستشراق.

نهتم في هذا المطلب بعرض موقف المفكر الجزائري مالك بن نبي الراض لإنتاج المستشرقين بدعوى الأثر السلبي لهذا النتاج على الفكر العربي المعاصر، وقد انتهى بنا البحث إلى استخلاص نتيجة أساسية مفادها أن فضل الرجل يكمن في أنه كان مُدركا لقضايا الأمة الإسلامية وأزمتهَا

¹ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 14.

² المصدر نفسه، ص 15.

³ المصدر نفسه، ص 18.

⁴ المصدر نفسه، ص 24.

الحضارية؛ فأخذ على عاتقه مسؤولية تنبيه الضمير الإسلامي إلى أن هذا الانسداد الحضاري المتراكم لا ينفع معه الانخراط في منطق الدفاع العقيم ضد افتراءات المستشرقين؛ ولا حتى الاحتفاء بمواقفهم الإيجابية من الحضارة الإسلامية؛ مبيّناً أن الحل الصحيح هو في تحرر المسلمين من مرض القابلية للاستعمار وما ينتج عنها من انهزامية وشلل فكري.

لقد عرفت دائرة تفكير مالك بن نبي، حقيقة الاستشراق ودوافعه، وميّزت بين ما يمكن أن نُسميه؛ استشراق غايته الوصول إلى الحق دون أفكار مسبقة، وأمراض دفينه، يُنظر من خلالها إلى الإسلام وما ولده من ثقافة وحضارة. واستشراق مُوجّه بأطروحات ومناهج تخفي أمراضاً، وتنطلق من عُقد في التعامل مع الإسلام وثقافته وحضارته.

وعرفت كذلك محاولات استشراقية ثالثة، تتحرك في أفق المحاولتين، فمرّة تتحرر من عُقدها، ومرّة تعود وتهوي في مزالق عقدها¹.

فمن الكتابات الاستشراقية التي قرأها مالك بن نبي، كتابات المفكر والفيلسوف الروائي الإنكليزي (ألدوس هكسلي) وبالطبع هو من المهتمين بالتصوف خصوصاً في الفترة ما قبل وفاته. وفعلاً قد نظر مالك بن نبي وتفاعل مع أطروحات (هكسلي) سلباً وإيجاباً، ففي مقالة كتبها مالك بن نبي بعنوان "الدراسات العصرية والتصوف الإسلامي"²، فمالك بن نبي استند إلى الإفادات والآراء التي تقدم بها (هكسلي). وقام بتقويم ونقد للدراسات الجديدة في مضمار الاستشراق والتي تناولت التصوف حصراً وتحديداً، وجاء تقويم ونقد مالك بن نبي صريحاً، فقال: "إن المفكر الإنكليزي (ألدوس هكسلي) يبدو الكاتب الوحيد الذي تناول، كتابه (الفلسفة الخالدة) دراسة التصوف كموضوع علمي أو بالضبط كطريقة بحث، وكمنهج يتبعه الاجتهاد العقلي لاكتشاف مجهول من

¹ محمد جلوب الفرحان: (مالك بن نبي، الحوار الإسلامي المسيحي والدراسات الاستشراقية)، الفيلسوف: مجلة فلسفية متخصصة، العدد: 231، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://drmfarhan.wordpress.com>). تاريخ الاطلاع: 2022/05/04م.

² مالك بن نبي، في مهب المعركة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، 1981م، ص 167.

نوع خاص، أي على أن التصوف (علم) يبحث عن هذا المجهول، حيث أن كل علم هو في جوهره الجهد الذي يبذله الإنسان من أجل اكتشاف ما يجهد¹.

إنّ دائرة تفكير مالك بن نبي، لم تقف عند حدود أطروحات (هكسلي)، وإنما تخطته، وقامت بمراجعة أطروحاته في ضوء قراءات إلى مصادر معرفية أخرى في موضوع الاستشراق والتصوف. وفي ضوء هذه القراءات، صرح مالك بن نبي، وهو يُقوّم الفعل المعرفي، الذي أنجزه (هكسلي)، ومن هنا تأخذ مَثابرة هكسلي، "مكانها في هذا الاتجاه مع محاولات أخرى كالتّي يقوم بها (روني جنون) ومدرسته في نفس الموضوع، مع ما يُنشر من حين إلى آخر، ككتاب (وحدة الأديان من الناحية الميتافيزيقية) الذي يُعبر بمجرد عنوانه عن أهميته بالنسبة لموضوعنا"².

وكشف مالك بن نبي عن (المستور والمضموم في الدراسات الاستشراقية) والتي بحثت في مشكلات الفكر الإسلامي أو هذا ما أعلنت عنه. ويحسبُ إنها جرت في (جو ديكراتي) واعتمدت على الدراسات الغربية فقط، وعن ذلك يقول مالك بن نبي "وأياً ما كان الأمر، فإنما الشباب المسلم المثقّف في بعض ديار الإسلام يرى نفسه مضطراً إلى أن يلجأ إلى مصادر المؤلفين الأجانب خضوعاً لمقتضيات عقلية جديدة، ولعله يُقدّر إلى حد كبير منهجها الوضعي الديكراتي، حتى إننا نجد قضاة وشيوخاً معتمّنين يتذوقون فيها رشاقتها الهندسية. وهذا كله لا غبار عليه لو اقتصر الاستشراق بمناهجه على الموضوع العلمي، ولكن الهوى السّياسي الدّيني كشف عن نفسه أحياناً بكل أسف في تآليف هؤلاء المتخصصين الأوروبيين في الدّراسات الإسلامية، على الرغم من أنّها تدعو إلى الإعجاب حقاً"³.

ويردّد مالك بن نبي الحقيقة المؤلمة وهي: "إن الدراسات الإسلامية التي تظهر في أوروبا بأقلام كبار المستشرقين واقع لا جدال فيه، ولكن هل نتصور المكانة التي يحتلها هذا الواقع في الحركة الفكرية الحديثة في البلاد الإسلامية؟ إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت في الواقع درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها، وحسبنا دليلاً على ذلك أن يضم مجمع اللغة العربية في مصر بين

¹ مالك بن نبي، في مهب المعركة، المصدر السابق، ص 167.

² المصدر نفسه، ص 168.

³ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص 55.

أعضائه عالماً فرنسياً. وربما أمكننا أن ندرك ذلك إذا لاحظنا عدد رسالات الدكتوراه، وطبيعة هذه الرسائل التي يقدمها الطلبة السّوريون والمصريّون كل عام إلى جامعة باريس وحدها، وفي هذه الرسائل كلها يصرون - وهم أساتذة الثقافة العربية في الغد وبعثو نهضة الإسلام- يصرون كما أوجبوا على أنفسهم، على ترديد الأفكار التي زكّاهها أساتذتهم الغربيون¹.

حقيقة لقد طوّر الغرب، أدوات البحث ومناهج الدراسة، وتنامت أساليب النقد والتقييم، في حين إن الشرق وعالمنا الإسلامي على وجه الخصوص (يغطّ في نوم عميق). ومفكرنا مالك بن نبي عرف ذلك وأشار إليه، فيرى أن الاستشراق بهذا الطريق، تمكن من أن يتغلغل إلى أعماق الحياة العقلية في البلاد الإسلامية.

فالأب (هنري لامانس) (Lamance,P,R) (1862 - 1937) "لم يكن المثل الفريد للمستشرق الطاعن على الإسلام ورجاله، والحالة الوحيدة التي يمكن أن نلاحظ فيها العمل الصامت لتقويض دعائم الإسلام، فقد كان لهذا الرجل (الشاطر) على الأقل، فضلٌ في الكشف عن بغضه الشديد للقرآن، ولمحمد ﷺ ولا شك أن العمل في ظل هذا التعصّب الصّاحب خير من تلك الميكيفيلية الصّامتة المستهجنة التي اتبعها مستشرقون آخرون، متسترين بستار العلم.

ومن العجيب أن نذكر ما تتمتع به هذه الأفكار الحمقاء من مجاملة، ولا سيما في مصر، عندما تصدرها جامعات الغرب، وأصدق مثال على ذلك بلا جدال، الفرض الذي وضعه المستشرق الإنجليزي (مرجليوث) عن (الشعر الجاهلي)، فقد نشر هذا الفرض في تموز (جويلية) عام 1925م في إحدى المجلات الاستشراقية؛ وفي خلال عام 1926م نشر (طه حسين) كتابه المشهور (في الشعر الجاهلي)، فهذا التسلسل التاريخي مُعبّر تماماً عن تبعية أفكار بعض قادة الثقافة العربية الحديثة للأساتذة الغربيين².

¹ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص 54.

² المصدر نفسه، ص 56.

المطلب الثالث: نقد مالك بن نبي للمستشرقين المدافعين والمداحين للإسلام والمسلمين والعرب والحضارة الإسلامية.

بعدما رأينا تقسيم مالك بن نبي للمستشرقين سنفضّل الكلام في ذكر موقف مالك بن نبي من كل قسم من هذا التقسيم وسنركز على المداحين المدافعين عن الإسلام والعرب وحضارتهم.

1/ الأقدمون: "أثروا وربما لا يزالون يؤثرون على مجرى الأفكار في العالم الغربي دون أيما تأثير على أفكارنا، نحن معشر المسلمين... بينما لا نرى لهم أي أثر فيما نسميه النهضة الإسلامية اليوم"¹.

ولقد ساهمت مؤلفاتهم في الإعداد لعصر النهضة الأوروبية، وقد التزم الكاتب منذ العتبات الأولى في كتابه "إنتاج المستشرقين" بأن لا يتعرض إلى الاستشراق قديماً.

2/ المحدثون: "إنهم لا يدخلون في موضوع بحثنا لأن إنتاجهم، على فرض أنه مسّ ثقافتنا إلى حد ما، إلا أنه لم يحرك ولم يوجّه بصورة شاملة مجموعة أفكارنا، لما كان في نفوسنا من استعداد لمواجهة أثره تلقائياً، مواجهة تدخلت فيها عوامل الدفاع الفطرية عن الكيان الثقافي"².

فمالك بن نبي قد كان مصيباً في ذلك؛ لأن كل مواجهة واضحة يُفهم منها الطعن في الإسلام ستحرك أقلام كل المفكرين والكتّاب للدفاع عن الإسلام، فهذه حرب ظاهرة وواضحة ومكشوفة وليس فيها خطورة كبيرة.

3/ المدافعون والمداحون للإسلام والمسلمين والعرب والحضارة الإسلامية: وهم الذين يخصص لهم الأستاذ مالك بن نبي دراسته، وذلك لأنهم لم يلقوا أي مقاومة وكانت لهم آثار معتبرة مكنتهم من مخادعة نسقنا الدفاعي. فهو يحذر منها تحذيراً كبيراً، ويعتبرهم أخطر من الناقدين وسبب ذلك أنهم يُدخلون أفكارهم المسمومة ضمن مديحهم، ويتقبلها المسلمون دون إدراك أو وعي حيث "نجد للمستشرقين المداحين الأثر الملموس، الذي يمكننا تصوّره، بقدر ما ندرك أنه لم يجد في نفوسنا أي

¹ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 06.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

استعداد لردّ الفعل، حيث لم يكن هناك في بادئ الأمر مبرّر للدفاع الذي فقد جدواه وكأنما أصبح جهازه معطلاً لهذا السبب في نفوسنا"¹.

وقد نبّه مالك بن نبي لدهاء المستشرقين وحيلهم، فيرى أن مدح بعض المستشرقين لنا كان له تأثيراً علينا مما جعلنا نغمض عيوننا مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة، التي تذكرنا بالعزّ الذي كان، فتركن إلى ذلك وتعتمد على مجد آبائنا وأجدادنا، وتظن أننا عظماء لأن أجدادنا كانوا كذلك، فنحن نغلق أجفاننا على صورة ساحرة حاملة لماضي مترف، وتحدث الصدمة بمجرد أن تستيقظ على مشهد الواقع القاسي، من وجع وألم ومجاعة وحرمان وفقر مُدقع وبطالة وأوبئة وحكم شمولي وأمية، ويعتقد أن "المدح و التّمجيد لماضيها هما من الوسائل التي شغلتنا عن أم مشكلاتنا، وهو الأمر الذي آل بنا إلى الاهتمام بمشاكل وهمية وحلول وهمية"².

وفي أحسن الأحوال نقع في صراع داخلي بين الوافد والمحلي، وبين الأصول والفروع، فيتقدّم الآخر أين نتأخّر نحن.

والحق أن مالك بن نبي في سعيه إلى تسليط الضوء على انحرافات الفكر الإسلامي الناجمة عن المؤثرات الاستشراقية الحديثة، ركّز أكثر على طبقة المستشرقين المادحين للحضارة العربية الإسلامية في فترتها الكلاسيكية المبدعة؛ وذلك بدعوى التأثير السلبي الخطير الذي تركه هؤلاء الباحثين بقصد أو دون قصد في حياتنا الثقافية. ومكّن الخطر هنا أن هذا التمجيد ساهم في تخدير العقل الإسلامي الذي بدلاً من أن يمتلئ حيوية وتوتراً خصباً في مواجهته للحضارة الغربية الظاهرة، اكتفى بالاحتماء بأجداد الماضي والاستئناس بالمديح الاستشراقي، وأسقط من حسابه كل ضرورة لحوض المعركة الفكرية اللازمة للتغيير، ومجابهة الإرث الثقيل.

فيرى مالك بن نبي أن التمجيد الاستشراقي لماضي المسلمين كان عقبة حقيقية منعت تقدمهم نحو النهضة التي استعاضوا عنها بالهروب إلى ماضيهم التليد، ليقاوموا به عواصف العصر، ذلك لأن هذا التمجيد كان، في لحمته وسداه، تلهية للمسلمين صرفتهم عن النظر في مشكلاتهم الحقيقية، وعطلت طاقتهم الإبداعية القادرة على فهم الأسباب الكونية للظواهر، والأخذ بهذا الفهم

¹ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 7.

² المصدر نفسه، ص 18.

في التصدي لواقعهم البائس ومعالجة أزمتهم المستجدة. يقول في هذا الصدد: "وما ذلك الأدب المطب في المدح والتمجيد لماضيها إلا وسائل صرف في المجال السياسي أو في المجال الفكري، حتى يلتفت العالم الإسلامي عن أم مشكلاته، ألا وهي مشكلة حضارته، حتى يصرفه عنها، ويربطوا اهتمامه بمشكلات وهمية، ويلهوه بحلول وهمية، يتجلى عبثها بصورة مفجعة في ظرف من الظروف الخطيرة غداة افلاس مُصقع، وهزيمة شنيعة، وفضيحة مخجلة"¹.

4/ المنتقدون: أما فيما يخص طبقة المتعصبين ضد الحضارة الإسلامية المتحاملين عليها من المستشرقين المحدثين، فقد سلك معهم مالك بن نبي المسلك البراغماتي نفسه الذي سلكه مع طبقة المستشرقين الرواد، فنظر إلى كتاباتهم من زاوية مدى إسهامها في إخصاب الفكر الإسلامي الحديث وإشعال جذوته ليكون في مستوى تطلعات المسلمين النهضوية².

وقد خلص من هذا إلى نتيجة مفادها أن استجابة إصلاحييننا بكتابات وخطب غاضبة ضد الاستفزازات السخيفة التي تقدم بها بعض المستشرقين المحدثين الذين ضربوا بسهم وافر في تشويه الحضارة الإسلامية والانتقاص من قيمتها، وكذا الإساءة إلى منتجيتها من العرب والأعاجم، وإحداث الفرقة بين المسلمين بإثارة النعرات العرقية في المجتمعات الإسلامية الحديثة لأغراض استعمارية؛ إن هذه الاستجابة بقيت - حسب مالك بن نبي - في مستوى الملاجئة أو المماحكة الجدالية التي ربما نفعت في الدفاع الغيور ضد الحصون الذاتية، ولكنها لم تُعد الفكر الإسلامي الحديث للتجديد والابتكار، ولم تُسلم لنهضة حقيقية³.

ليختم لنا مالك بن نبي بالقول: "وبالتالي يتبين لنا أن الانتاج الاستشراقي، بكلا نوعيه، كان شراً على المجتمع الاسلامي، لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديح والاطراء التي حوّلت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضيها، أو في

¹ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 18.

² خالد مزاتي، (موقف مالك بن نبي من إنتاج المستشرقين: نحو وعي نهضوي جديد)، مجلة مفاهيم للدراسات الفلسفية والانسانية المعمّقة، الجزائر: جامعة زيان عاشور، الحلقة، العدد: 7، مارس 2020م، ص 231.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

صورة التنفيذ والاقبال من شأننا بحيث صيرتنا حماة الضيم عن مجتمع مُنهار، مجتمع ما بعد الموحدين¹.

المطلب الرابع: دور الاستشراق في تخدير العقل الإسلامي.

لعل الإشارة الأولى التي يجب أن ننطلق منها، كمعطى أساسي في هذا المطلب، هي القول إنّه إذا كان مالك بن نبي هو أحد فلاسفة الحضارة العرب الثقيلين بهاجس رفع الغمة عن أمته الإسلامية، فإنه لأمر طبيعي بعد ذلك أن يتخذ من نتائج بحثه في ظاهرة الاستعمار نموذجًا إرشاديًا (paradigm) يقيس عليه في مسارات بحثية أخرى، وأن تأتي مقارنته لموضوع الاستشراق ضمن سياق أعم هو البحث عن المفاتيح الضرورية التي تفسر مشكلة الحضارة، وتكشف قوى العطالة عندنا، كخطوة أولى على طريق الإسهام في التأسيس لمشروع مجتمعي حضاري ببناء في العالم الإسلامي. والحق أن دراسات مالك بن نبي في مجملها قد بيّنت استحالة أن يتحقق هذا المشروع الأخير على النحو المنشود ما لم يشف المسلمون من مرض (القابلية للاستعمار) التي لا تزال تضرب بجذورها في غور العقل الإسلامي وتثقل كاهله بما تحمله من رواسب الماضي. يضاف إلى ذلك، الدور التخريبي الذي مارسه الاستعمار ولا يزال يمارسه - حتى بعد رحيله - بأساليب مآكرة أثمرت قتل الفاعلية وبت روح الهزيمة في نفوس المسلمين، وتسطيح وعيهم، ودفعهم إلى حالة من التدمير الذاتي الذي بلغوا فيه - بالفعل - شأواً بعيداً أقلّه تمزيقهم لنسيج علاقاتهم الاجتماعية (النتائج الكارثية للطائفية المذهبية في العراق أنموذجاً)²، وتبديدهم لطاقتهم الحيوية على غير هدى.

يقول مالك بن نبي: "نحن ندرك جيّداً النشاط الاستعماري عندما يكون مرئياً واضحاً، كأنه لعبة أطفال، ولكننا لا ندرك مجال هذا النشاط ولا وسائله منذ اللحظة التي يصبح فيها دقيقاً كلعبة الشيطان. نحن ندرك مثلاً وسائله التي استخدمها لقتل الثورة الجزائرية، كالدبابة والطائرة، وقنابل النابالم. فذلك شيء مرئي واضح. إن عمل الاستعمار يتلاحق كل يوم في صورة أكثر دقة وخفاء، تلاحقاً لا يعود معه في مقدورنا أن ندرك منه شيئاً، فإن لنا أوضاعاً عقلية تحول بيننا وبين أن نتبع اللعب حين لا يكون مرئياً أو واضحاً، وحين تكون الوسائل المستخدمة في قدر حبات الرمل. ذلك

¹ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 25.

² راجع بخصوص هذا الموضوع، سعد ناجي جواد: العراق من الاحتلال إلى مخاطر التفكيك.

أن حبة رملٍ واحدةٍ كافيةٍ أحياناً لإيقاف محرك، إذا ما تسرّبت إلى أحد أجهزته. وبعبارةٍ أخرى: قد تكفي لدعة إبرة في مكانٍ مُناسبٍ ليحل الشلل بشبكة العلاقات الاجتماعية في بلدٍ مستعمر، كما يكفي (لا شيء) لشل الجهاز العصبي في مكانٍ حيٍ [...] . وإنا لنذكر جيّداً أن الاختصاصيين الذين يعملون لحساب الاستعمار، أساتذة في ذلك الفن المطبّق على الشبكات الاجتماعية، وعلى الطاقة الحيوية التي يملكها شعب، مستعمر فعلاً، أو مهددة بمؤامرات الاستعمار"¹.

ويعتبر مالك بن نبي المستشرقين المادحين أخطر من الناقدين وسبب ذلك أنهم يدخلون أفكارهم المسمومة ضمن مديحهم، ويتقبلها المسلمون دون إدراك أو وعي حيث "نجد للمستشرقين المادحين الأثر الملموس، الذي يمكننا تصوره، بقدر ما نذكر أنه لم يجد في نفوسنا أي استعداد لرد الفعل، حيث لم يكن هناك في بادئ الأمر مبرر للدفاع الذي فقد جدواه وكأنما أصبح جهازه معطلاً لهذا السبب في نفوسنا"².

وقد تبّه مالك بن نبي لدهاء المستشرقين وحيلهم، في تحدير العقل الإسلامي، مما جعلنا نغمض عيوننا مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة. "ولاشك أن أولئك الماهرين في فن القصص قد قصوا للأجيال المسلمة في عهد ما بعد الموحدين قصّة ألف ليلة وليلة، وتركوا بذلك أثر كل سمر، نشوة تخامر مستمعهم حتى يناموا فتتعلق أجفانهم على صورة ساحرة لماضٍ مترف. ولكن سوف تستيقظ هذه الجماهير في الغد فتفتتح أبصارهم من جديد على مشهد الواقع القاسي"³.

ومن باب الإنصاف يقول مالك بن نبي: "ربما وجب علينا أن نستخلص من هذا العرض نتيجة تحدد موقفنا من إنتاج المستشرقين، فنقول: أولاً إنه إنتاج لا يجوز نكران قيمته العلمية، بل نراه أحياناً يستحق كل التقدير لما يتسم . في بعض أصنافه مثل . ما خلفه (سيديو) أو (جوستاف لوبون) أو (آسين بلاثيوس) بالإضافة إلى طابعه العلمي، بطابع أخلاقي ممتاز لا يمكن نكرانه كشهادة نزيهة من طرف شهود نعرف قيمتهم كعلماء"⁴.

¹ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، 1986م، ص 81، 82.

² مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 07.

³ المصدر نفسه، ص 13.

⁴ المصدر نفسه، ص 42.

وفي المقابل يرى مالك بن نبي أن المستشرقين في عمومهم قد أجادوا ممارسة لعبة الأفكار الملقمة بما يخدم إرادة الغرب في الهيمنة والتسلط على الشرق، ولكنهم ظلّوا وبالأخص المحدثين منهم يفتقرون إلى الفاعلية والمصدقية كلما تعلق الأمر بواجب تحمل عبء (تمدين) الآخرين ضمن سياق التبريرات والوعود الاستعمارية الكاذبة التي قطعها الغرب الأوروبي على نفسه تجاه الشرق في بداية القرن التاسع عشر.

المطلب الخامس: أثر إنتاج المستشرقين على واقع العالم الإسلامي.

أكد مالك بن نبي على أثر نتاج المستشرقين في واقعنا المعاش فيقول: "إننا نرى اليوم مرأى العين هذا العمل الفتاك، ونرى أثره في كل تفاصيل حياتنا الفكرية والسياسية والاجتماعية، وفي البلاد العربية حيث تكوّنت تجرّبي وخبرتي كمواطن وككاتب وكصحافي. وليس كتاب كامل بكافي لسرد هذه التجربة. ولنذكر منها فقط، على سبيل المثال آخر تفصيل من تفصيلها: انعقد أخيراً بباريس مؤتمر العمال الجزائريين بأوروبا وبهذه المناسبة تقرّر من لدن المشرفين على المؤتمر توزيع كتيب لصاحب هذا العرض، تناول فيه مشكلة من مشاكلنا اليوم، بالخصوص في الجزائر، البلد الذي اتخذ من كلمة (الديمقراطية) شعاره الدستوري. ولكن أصحاب الاختصاص في الصراع الفكري لم يهملوا هذه المناسبة من اهتمامهم، ولم يفتهم ما تقرّر توزيعه بهذه المناسبة، ولكن كيف يسدّون الذريعة، أعني كيف يسدّون الطريق على الأفكار المعروضة في الكتيب الذي سيوزع أثناء المؤتمر، حتى لا يصل مدها إلى رؤوس المؤتمرين، أو على الأقل حتى يكون لها أقل مد ممكن؟

وإذا بنا نرى الدعوة توجّه إلى تلك السيدة الألمانية المقربة التي وضعت أو وضع اسمها على ذلك الكتاب ذي العنوان الجذّاب "شمس الله تشرق على الغرب"¹ وفيه ما فيه من مدح وتمجيد الحضارة الإسلامية. وتقدّمت السيدة، وقدمت كتابها إلى المؤتمر، فانتقل على الفور بروحه من مجال المشكلات الحادة القائمة اليوم، إلى أبهة وأمجاد الماضي الخلاب! ولم يكن الصديق الذي كان يذكر لي

¹ مؤلفته الكاتبة الألمانية، زيفريد هونكه، (1913م / 1999م) كانت مستشركة ألمانية معروفة بكتاباتها في مجال الدراسات الدينية، وحصلت على شهادة الدكتوراه عام 1941م.. اشتهر عنها في آخر حياتها أنها كانت تنظر للإسلام نظرة معتدلة، من أشهر تراجم كتاباتها انتشاراً في العالم العربي وهما (شمس العرب تسطع على الغرب) وكتاب (الله ليس كذلك). انظر: موقع ويكيبيديا على شبكة الأنترنت (<https://ar.wikipedia.org/wiki>) تاريخ الاطلاع: 2022/06/16م.

هذه القصة يخطر على باله أي شيء من صلتها "بالصراع الفكري" وهو يقول: وفي الأخير قامت القاعة كلها لتُحيي السيدة!"¹.

وأيضاً فإن مالك بن نبي لا يحدّر من نتاج المستشرقين فحسب، بل من العمل الفكري للمتأثرين بهذا النتاج ممن هم في حضيرة الفكر الإسلامي، ويضرب على ذلك مثلاً كتاب (الايديولوجيات العربية في محضر الغرب) والذي قدّم له أحد المستشرقين وهو (مكسيم رودنسون) والذي يعتبره مالك بن نبي "مبنيّاً على منطق سفسطائي، ذو صلة متينة بهذا التيار، وأن صاحبه، التلميذ المراكشي لصاحب المقدمة، من هذه الشجرة التي يجوز لنا أن ننسب لها أيضاً من تلامذة المستشرقين حتى أولئك الأبرياء الذين يضعون أقدامهم عن غير شعور في ثقافة الغرب بل في سياسته أيضاً، ويتقدمون هكذا بأنصاف الحلول لأنصاف المشكلات التي يعتقدونها المشكلات الرئيسية للعالم الإسلامي، غير أنهم يختلفون بحسن نواياهم عن الآخرين أولئك الآلات المسخرة بين أيدي اختصاصيي الصراع الفكري، السّائرين على إثر أساتذتهم الغربيين، لا يختلفون معهم إلا في مهارة الأسلوب والتزييق في الصّيغة، ويلتقون مع أساتذتهم في الانتقاص من سوابق الفكر الإسلامي، ولكن يمتازون في إحاطة مستقبله بالرّيبة والابهام بتلك الثروة التقدمية مثل صاحب كتاب (الايديولوجيات العربية في حضر الغرب) الذي أشرنا إليه"².

المطلب السادس: المستشرق لويس ماسينيون في كتاب العفن لمالك بن نبي.

مالك بن نبي، و(لويس ماسينيون Louis Massignon 1883م/ 1962م) الثاني مستشرق فرنسي كبير وعالم الإسلاميات العالمي المعروف لدى الجامعات والمعاهد والحواضر العلمية العالمية، وصاحب الندوات الفكرية وذي العلاقات القوية بالأوساط الاستعمارية والكنسية والاستخباراتية، مستشار لوزارة الخارجية الفرنسية ومنظر أحد الإرساليات التنصيرية تلامذة (شارل دي فوكو) بالصحراء الجزائرية ومن كان قاب قوسين من أن يصبح خليفة لدي (فوكو) بصحراء الجزائر.

¹ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 16، 17.

² المصدر نفسه، ص 23، 24.

لم يدّخر (لويس ماسينيون) أيّ جهد في الفترة ما بين 1931 و 1961، سنة وفاته، لمضايقة مالك بن نبي في حياته ومنع بزوغ فكره، ثمّ منع تألقه في وقت لاحق من حياته. عندما التقى به مالك بن نبي لأول مرة سنة 1931م كان (ماسينيون) قد قطع شوطا كبيرا في مجال المخابرات والصراع الفكري. وكثيرا ما كان مالك بن نبي يقصد (ماسينيون) عند كلامه عن الاستعمار. ذلك أن هذا الشخص كان يمثل الاستعمار بمفرده في أدقّ تفاصيل أفكاره وأعماله.

فمن بداية حياته إلى نهايتها كان يمثل الاستعمار العنصري والتنصير بالترغيب والترهيب (بالجزرة والعصا)، وفي مسيرته تلك داس بقدميه على حياة كثير من الناس، ومن بين ضحاياه (حمودة بن ساعي) رفيق درب مالك بن نبي خلال المرحلة الأولى من حياته¹.

كان (ماسينيون) يحتل مكانة مرموقة في الأوساط المهتمة بالعلوم الإسلامية حتى صار بمثابة رمز أو أيقونة، لأنه كان يؤثر تأثيرا بالغا في اتجاه السياسة الفرنسية في البلدان الإسلامية وفي العالم، ويحظى بسلطات مطلقة في هذا المجال.

الرجلان جمعتهما الأقدار في النصف الأول من القرن العشرين في مدينة باريس عاصمة الجن والملائكة، الأول مالك بن نبي كان طالبا يبحث عن العلم والمعرفة وعن لقمة يقاتها ووظيفة يرتادها ووطن جريح يحلم بتحريره. والثاني (ماسينيون) عالم الإمبراطورية الفرنسية المدلل لدى الحكومات والوزارات الفرنسية المتعاقبة والمنصّر المقرب من الأوساط الكنسية وكان الفرق بين موقع الرجلين اجتماعيا لا يقارن، كان الأول في حاجة لمساعدة الثاني وهذا ما كان يرغب فيه هذا الأخير لكن ليس بدون مقابل!!؟.

رغم بعد المواقف والمواقع التي تفرق بينهما إلا أنهما كانا يعرفان بعضهما حق المعرفة، على الأقل هذا ما يخبرنا به مالك بن نبي الذي كان كلّما تعرّض (لماسينيون) يصفه بصاحب الحلاج لأن (ماسينيون) اهتم بالحلاج طوال حياته ونال عليه شهادة الدكتوراه التي كانت تحتوي على أكثر من

¹ لنور الدين بوكروخ: (مالك بن نبي ولغز ماسينيون)، ترجمة عبد الحميد بن حسان، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://www.aljazairalyoum.dz>)، تاريخ الاطلاع: 2022/05/04م.

ألف صفحة، كما أنّهم مالك بن نبي (ماسينيون) بأنه كان يتتبع خطوات الطلبة المغاربة جاسوس، وهو أحد منظري الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.

يقدم كتاب (العفن) الجانب الأكثر صراحة من الذكريات والمذكرات لصاحبه فيلسوف الحضارة مالك بن نبي، فمذكراته الرئيسة (مذكرات شاهد القرن) كانت هادئة في أسلوبها على الأقل. نفت مالك بن نبي في كتاب (العفن) ما كان يطوي عليه صدره من محن ومقاساة نفسية وأسرية واجتماعية... خلال عشرين سنة، وكما قال هو نفسه عن الكتاب إنه "خلاصة ما يختلج في نفس أريد لها التحطيم عبر الإكراه الجسدي والسّم المعنوي. فقصة هذه النفس وتجربتها منذ عشرين سنة هي نفسها قصة هذا الكتاب. إنها باختصار (اعترافات) أو (مذكرات)"¹، هكذا عبر مالك بن نبي في مقدمة كتاب (العفن).

تناول كتاب (العفن) كثيراً من آراء الرجل في الأشخاص والأفكار التي عاصرها، بأسلوب انفعالي أدبي، ولكنه لم يخل - كما هي كتابات الرجل دائماً - من تأملات عميقة تتجاوز اللحظة والحدث العابر لتؤطره في سياق نقد منهجي للحضارة إنسانا ومكانا وقيما وأشياء، وإلى جانب العمومي تناول الكاتب في (العفن) قضايا أسرته الخاصة بكثير من الشجن والإنسانية، وعقد فصلا لأمه في سنواتها الأخيرة ولموتها وكيف كان أثر ذلك عليه وعلى أبيه. ويبدو أن مالك بن نبي كان مدركا القسوة الكامنة في منح كتابه عنوان (العفن)، ولذلك حاول أن يفسر الدواعي التي جعلته يختار هذا العنوان، قائلا: "استهوتني عناوين كثيرة أسّم بأحدها هذا الكتاب، غير أنني اخترت عنوانا يلخصها جميعا: (العفن). ويوافق هذا العنوان بالفعل الانطباع الأكيد الذي أحمله معي من متحف أو معرض يجويان وجوها وأشياء أعرفها منذ عشرين سنة، وأجدها مرتبة ومصنفة بطريقة استذكارية معززة بشروحها وبطاقاتها الخاصة: فنحن الآن أمام مجموعة من (لوحات المرفهين...) مثلا، وبجانبيها، لوحة خاصة ب (أصدقاء المسلمين) من أمثال (ماسينيون)، أما في هذا الجانب فتوجد قاعة خاصة (بأشياء القابلية للاستعمار وقصص الأهالي)، سكان المستعمرات (indigènes)"².

¹ مالك بن نبي، مذكرات العفن، ترجمة: عبد الرحمان، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2007م، ص 15.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

لم تكن تلك اللوحات التي رمز لها مالك بن نبي في الفقرة السابقة إلا لوحات لوجوه جزائرية كثيرة رأى مالك بن نبي أنها كانت تحون الوطن وتبيعه بضمن بحس، ثم لوحات وجوه الفرنسيين المستشرقين من قادة الاستعمار ومنظريه، أمثال (لويس ماسينيون) الذي خصص مالك بن نبي كثيرًا من كتابه هذا لفضح أساليبه المختلفة في إرباك الوعي وتزييفه والترويج للمسيحية والظعن في الإسلام بين شباب المستعمرات الفرنسية الدارسين بالمدراس الفرنسية. محاولة التحطيم والإكراه النفسي والسّم المعنوي - كما سماه ابن نبي - كان يقف خلفها رجالان، أحدهما الجزائري الذي لا يفهم الخطط الاستعمارية أو يفهمها ويتعامل معها بعقل تجاري نفعي، وهنا حاول مالك بن نبي أن يغوص إلى المشكلات النفسية والاجتماعية التي تجعل بعض أفراد النخبة الجزائرية في تلك الفترة يقفون مثل تلك المواقف المشينة. أما الرجل الثاني فلم يكن سوى المستشرق الفرنسي لويس (ماسينيون)، الذي رأى في مالك بن نبي - بعد قدومه طالبًا - خطرًا على خططه في بث الأفكار الهدامة والفرقة والاختلاف بين الشباب العربي وخاصة شباب شمال إفريقيا، وقد تصدى مالك بن نبي مع صديقه حمودة بن ساعي إلى تلك المحاولات، واستطاعًا بجهودهما المتواضعة أن ينتزعا من (ماسينيون) كثيرًا من ساحته الطلابية العربية التي كان يرتع فيها دون رقيب. لكن (ماسينيون) بعدما فشل في ضم مالك بن نبي إلى صفه عبر وسائل الإغراء والتلطف وقف له بالمرصاد، وكان يتتبع تحركاته ويضيق طموحاته الدراسية والمهنية داخل فرنسا، بل وامتد ذلك السعي للتأثير النفسي والإيذاء الاجتماعي إلى الجزائر، حيث أقبل أبوه من عمله بإشارة من (ماسينيون)، لتعيش أسرته وضعًا صعبًا، ولكن مالك بن نبي كان عنيدًا لا يخضع، بل يظهر من خلال ما سرده في كتابه (العفن) أن محاولات الإدارة الاستعمارية ممثلة في (ماسينيون) إيذائه لم تزده إلا إصرارًا وعنادًا. وعندما فشل مالك بن نبي وهو الطالب المتميز والمهندس الكهربائي المكين في أن يجد أي فرصة عمل يسدُّ بها رمق أسرته الصغيرة وعائلته الكبيرة؛ قرر أن يذهب إلى الحجاز، فلعل دراسته الهندسية تمنحه وظيفة يعيش منها هناك، لكنه لما وصل مصر وقدم للتأشيرة تفاجأ برفض طلبه، وقد عرف أن ذلك بسبب توصية من (ماسينيون) الذي يبدو أنه لم ينس مداخلات مالك بن نبي التي كان يرد بها على مغالطاته¹.

¹ الشيخ أحمد البان: (كتاب (العفن) أو انفصالات مالك بن نبي)، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://islamonline.net/>)، تاريخ الاطلاع: 2022/05/04م.

ولعل من محاسن كتاب (العفن) هو أنه أعطى صورة تفصيلية مغايرة لصورة (ماسينيون) في كتابات بعض المثقفين والأدباء الذين درسوا عليه في فرنسا، ولم يكونوا حملة أفكار ومشاريع تناهض فكره ومشروعه الاستعماري، فكتاب (العفن) يعطي للقارئ الوجه الآخر لذلك الرجل المستشرق ذي العقلية الاستعمارية، والداعية المسيحي المتعصب ضد الإسلام كمشروع حضاري، وضد المسلمين إذا أرادوا الانعتاق من رِقَّة¹ الاستعمار الفكري والروحي والثقافي. كان مالك بن نبي أثناء دراسته بفرنسا يحمل همّ أمته الإسلامية المثخنة بالاستعمار، كما كان يحمل هم الشعب الجزائري الذي تسعى فرنسا بكل ما أوتيت من قوة لسلخه من هويته الحضارية وتحويله إلى مجتمع ملحق بفرنسا، وقد أعطى كثيرا من مذكراته (العفن) لنقد سلوك وتصورات "الأنديجينا"، وهو مصطلح استطاع مالك بن نبي أن يمنحه دلالة قذحية قاسية بفعل تحليله الاجتماعي والثقافي الذي يفضح به الإدارة الاستعمارية. و"الأنديجينا" هو قانون أصدرته فرنسا سنة 1871م تمثل في إجراءات تعسفية ضد الجزائريين الذين رفضوا التخلي عن أحوالهم الشخصية، مثل: العقوبات الجماعية على المخالفات الفردية، ومنع التجول دون رخصة، وقد كان قانونا تعسفياً رفضه الشعب الجزائري، ولكن مالك بن نبي يرى أن هذا القانون ترك آثار نفسية واجتماعية لدى بعض النخب، كما أنه يمثل عنده من جهة أخرى النظرة الدونية التي ينظر بها الفرنسي للمواطن الجزائري في تلك الفترة. ظل مالك بن نبي رغم تلك الإكراهات والمشكلات يرصد حركة المجتمع ويؤطرها في سياق تحول وتبدل الحضارات، ففي عز أيام صراعه مع (ماسينيون) لم يغفل مالك بن نبي عن تسجيل ملاحظة عميقة بشأن مشاهداته في معرض باريس الذي نظم سنة 1936م ف "مشهد معرض باريس هو في الغالب. مفيد جدا لمسلم سكنته أفكارنا. فقد رأينا جناحا يديره يهودي كان يحاول إخفاء هويته وكان يقدم الآلية التي تحرك عجلة ماكينة وعجلة... التاريخ. وبجانبه كان مسلم - مشرقى أو مغربي - يقدم سجادة وثيرة وعطور مثيرة. الأول كان يركز على كل ما يخلق القوة والثاني يدعو إلى الراحة والدعة...".²

ورغم التناقض والتباعد الموجود بين خطي الرجلين إلا أنهما التقيا على الأقل مرتين في مكتب (ماسينيون) ودائما بطلب من هذا الأخير، الأولى كانت سنة 1932م والثانية كانت سنة 1937م، وخلاصة الزيارتين كانت شكلية لا أكثر والسبب هو عدم تنازل الطرفين عن مواقفهما

¹ ارتَبَقَ فِي الْحَيْلَةِ: عَلِقَ وَنَشِبَ، ووقع في خديعته. انظر: ابراهيم أنيس، المصدر السابق، ج1، ص 325.

² مالك بن نبي، مذكرات العفن، المصدر السابق، ص 120.

ورغم مأساوية ظروف مالك بن نبي الشخصية والعائلية والتي كانت مأساتها كما يقول بسبب مواقف ابنها إلا أنه انحاز إلى جانب كبريائه.

رغم تباعد مواقف الرجلين السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والحضارية ورغم عدم تكافؤ الفرص بينهما، إلا أن هناك نقاط مشتركة جمعت بينهما، كل منهما أصبح قامة علمية وفكرية عالمية في عالمه الذي ينتمي إليه، وكلاهما ترك بصمة على ثقافته التي أنجبتة وطلبة يحملون أفكاره ويواصلون نهجه وتراثاً فكرياً يخلد ذكره، وكلاهما بقي وفياً لمبادئه إلى أن رحلاً في نفس اليوم وهو 31 أكتوبر (ماسينيون) سنة 1962م، ومالك بن نبي سنة 1973م¹.

وفي سنة 2003م نظم معهد العالم العربي (Paris) مؤتمراً من أجل تكريم ثماني شخصيات فكرية من فرنسا والجزائر، وكان المفكرون الجزائريون الذين اختيروا هم: عبد الحميد بن باديس، ومالك بن نبي، ومحمد بن شنب (1869-1929)، ومهدي بوعبد اللي (1907-1992م). أمّا من الجانب الفرنسي فقد اختير (لويس ماسينيون Louis Massignon)، و(جاك بيرك Jacques Berque)، و(الكاردينال دوفال Cardinal Duval (1903-1996)) و(جيرمان تيون Germaine Tillon).

وهكذا التقى اسم مالك بن نبي واسم (لويس ماسينيون) في تكريم واحد نظمته ذاكرة العرفان في البلدين².

تلك بعض الشذرات من كتاب (العفن) لمالك ابن نبي، وهو كتاب لطيف في أسلوبه وسرده الأدبي، وجليل لما فيه من تقييم لأشخاص كانت لهم أدوار كبيرة في بلدانهم فيما بعد ذلك، ولأحداث كان لها أثر على العالم الإسلامي وخاصة شمال إفريقيا، كما فيه نفس مالك بن نبي الباكية على أم تموت في غيابه، والصامدة حد التهور أمام آلة استعمارية متوحشة تعمل ضد إرادة فرد لا يملك سوى إيمان صادق وعزيمة ثابتة وأمل كبير في التغيير³.

¹ الطيب بن ابراهيم: (مالك بن نبي ولويس ماسينيون)، تاريخ النشر 2017/11/08م بحث منشور على شبكة الأنترنت <https://www.djazairress.com>، تاريخ الاطلاع: 2022/04/27م.

² نور الدين بوكروح، المرجع السابق.

³ أحمد البان، المرجع السابق.

الفصل الثالث

إدوارد سعيد ونقده

للاستشراق

المبحث الأول: حياة إدوارد سعيد

المطلب الأول: المولد والنشأة

إدوارد وديع سعيد مفكّر عالمي وناقد أدبيّ، وأستاذ ومحاضر جامعي، ذائع الصيت، في الأوساط الأدبية والفكرية، فلسطيني الأصل وُلد في القدس بفلسطين في الفاتح من نوفمبر سنة 1935م¹ في بيت عائلته بحي الطالبية من أسرة عربيّة نصرانيّة بروتستانتية²، ترعرع بشكل أساسي في القاهرة³. والدته "هيلدا" لبنانية الأصل وأبوه "وديع سعيد" من القدس الغربية، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة سنة 1911م، هروبا من التجنيد الإجباري العثماني حيث مكث فيها عشر سنوات انضمّ خلالها لصفوف الجيش الأمريكي⁴.

عاش إدوارد سعيد ونشأ في كنف عائلة كانت متنوّعة العناصر حيث يقول عنها: "كانت مزيجاً عجيباً من العناصر العربيّة المسيحيّة والإنجليزيّة؛ نظراً لأنّ والدي خدم في الجيش الأمريكيّ، خلال الحرب العالميّة الأولى، واكتسب الجنسيّة الأمريكيّة، قبل أن يعود إلى فلسطين. كنّا نعيش بطريقة غريبة للغاية؛ إذ أنّ أسرتي كانت تعيش في ما يشبه الشرنقة، دون الكثير من الصّلات بالعالم المحيط بنا"⁵.

¹ إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة، فؤاد طرابلسي، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص 45.

² مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1999م، ص 291.

³ إدوارد سعيد ودانيال بارنوبوم، نظائر ومفارقات (استكشاف في الموسيقى والمجتمع)، تقديم آراغوزيلميان، ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2005، ص 16.

⁴ إدوارد سعيد، خارج المكان، المصدر السابق، ص 30-33.

⁵ صبحي حديدي، (إدوارد سعيد الهوية تعددية والمنفى حقل كرم)، مجلة فصيلة الكرم، فلسطين مؤسّسة الكرم الثقافيّة، مركز تحليل السّكاكيني الثّقافي، رام الله، شتاء 2004م، عدد 78، ص 103، 104.

فالمحيط الخارجي الذي نشأ فيه إدوارد سعيد يتميز بكثرة الاضطرابات، والتدهور جزاء الممارسات الكولونيالية¹ للاستعمار البريطاني في منطقة الشرق الأوسط، حتى أن المؤسسات التعليمية التي كان سعيد يزاول دراسته فيها لم تسلم من ذلك².

كان إدوارد سعيد في طفولته يعاني من اضطرابات ونواقص جسدية مما جعل والده يقسو عليه من أجل علاجه وتقويم ما بدى له أنها إعاقة جسدية فقد كان إدوارد سعيد مصابا بعدة علل متمثلة في: ضعف قدميه ورعشة غير إرادية وآلام دائمة في معدته وضعف في البصر بسبب التهابات في قناة العين يقول إدوارد سعيد: "وقد بلغت الحادية والعشرين لم أعترض على كون أبي قد حوّل نفسه أن يحزمني مثل طفل شقيّ ترمز قامته الملتوية إلى ماهية ذميمة تستحق عقابا علميا"³.

الشيء الآخر الذي كان يعاني منه إدوارد سعيد هو افتقاره للاستقرار منذ صغره وشعوره الدائم بأنه خارج وطنه، فقد قضى طفولته وصباه متنقلا؛ فتنقل إدوارد سعيد من فلسطين إلى القاهرة ثم الولايات المتحدة الأمريكية التي عاش فيها منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره⁴.

وهذا مما كان له الأثر البالغ في نشأته وتكوينه، وما تحفله هذه السيرة من مقومات فنية وقضايا فكرية تبرز ذلك الأثر القوي الذي تركه في هوية سعيد المركبة، والمتحوّلة ترحاله بين فضاءات متعددة، ومعايشته ثقافات وحركات مختلفة، وتشبّعه بالقيم الإنسانية الكونية إلى جانب تشبّعه بهويته الفلسطينية، فضلا عن هويات جزئية متعددة أخرى تجعل من هويته الجامعة ذلك الكلّ المركب والمضطرب الذي صاغته تجربة المنفى وما تحمّله من غربة فكرية وتمزق ثقافي وقلق وجودي⁵.

¹ هي استغلال ثقافي وزرع للمستوطنات في إقليم ناء انظر: بيل أشكروفت وآخرون، دراسات ما بعد الكولونيالية "المفاهيم الرئيسية"، ترجمة: أحمد الروبي وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2010م، ص 106.

² رولان بارت، النقد والمجتمع، ترجمة: فخري صالح، دار كنعان، دمشق سوريا، ط1، 2004م، ص 112.

³ إدوارد سعيد، خارج المكان، المصدر السابق، ص 93، 94.

⁴ الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق، ص 292.

⁵ محمد الداوي، (الهوية المضطربة في خارج المكان لإدوارد سعيد)، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية، قطر: مركز العربي للأبحاث ودراسة السياسة، الدوحة المجلد 2، العدد 1، صيف 2013، ص 173.

المطلب الثاني: دراسته وتكوينه

يقول إدوارد سعيد عن تكوينه الأوّلي: "رغم ولادتي في القدس. فإني قضيت معظم سنواتي التكوينية الأولى في القاهرة. لقد كنت نتاج المدارس الاستعمارية. الأمر الذي جعلني في حالة حرب شبه دائمة مع المدارس والأساتذة. والحقّ أنني تلقّيت تعليماً جيّداً للغاية. ولكنّي لم أتأثّر بأيّ من الأساتذة، أو شخوص السّلطة الذين كنت أعتبرهم في الصّف المقابل على الدّوام. التأثيران الرّئيسان في سنواتي الأولى كانا أوّلاً أستاذي في الموسيقى "أغناس تيغمان" الذي درست على يديه البيانو، وكان الرجل يهوديّاً من أصل بولوني يعيش في مصر... لقد ترك في نفسي أثراً بالغاً خصوصاً لجهة موقفي من الموسيقى"¹.

ويواصل إدوارد سعيد كلامه في ذكر التأثير الثاني والذي كان سياسياً حيث يقول: "وهو الدكتور فريد حدّاد طبيب العائلة. كان فلسطينيّ الأصل، ولكنه مولود في مصر، وكان عضواً في الحزب الشيوعيّ، ومات سجيناً في أواخر الخمسينيّات على يد الشرطة، ولقد كان بالفعل وسيطي إلى السياسة، وإلى يسار السياسة والمعارضة السياسيّة"².

وبدأت حياة سعيد الدراسيّة المبكّرة في مدرسة "القديس جورج" (فلسطين)، التي كان يمضي إليها كل صباح رفقة ابني عمّه التوأمين، روبرت وألبرت، يقول: "ومدرسة القديس "جورج" هي أوّل مدرسة ذكور أنتسب إليها، وأول مدرسة عقدت فيها علاقات أوثق من علاقات المدارس القاهريّة حيث كنت مجرّد غريب يدفع الأقساط المدرسيّة"³.

يروى إدوارد سعيد قصة بداية تسجيله في مدرسة الأطفال الأمريكيين بالقاهرة، في الفصل الخامس من مذكراته التي بعنوان "خارج المكان" والذي تحدث فيه بصراحة عن التّمايز الشديد في البنية الاجتماعيّة بينه وبين أقرانه في المدرسة يقول في ذلك: "انتسبت إلى مدرسة الأطفال الأمريكيين

¹ صبحي حديدي، المرجع السابق، ص 103.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ إدوارد سعيد، خارج المكان، المصدر السابق، ص 146.

بالقاهرة، في خريف العام (1946م) بصفتي ابن رجل أعمال أمريكيًا وأنا لا أملك أدنى شعور بالانتماء إلى أمريكا"¹.

وبعدها قرّرت أسرة إدوارد سعيد إرساله إلى أمريكا؛ لمواصلة تعليمه؛ لأنّه حاصل على الجنسيّة الأمريكيّة، ولصعوبة المنهاج الإنجليزي. وفي العام 1951م انضم لمدرسة داخلية في ماساشوستس، وأمضى سنتين صعبتين هناك، كانتا الأكثر بؤسا في حياته، على حدّ تعبيره².

ثمّ تابع دراسته الجامعيّة وحصل على درجة البكالوريوس من جامعة برنستون عام 1957م؛ ثمّ الماجستير عام 1960م³؛ فجامعة هارفارد بين العامين 1961م-1963م، حيث حصل على الدكتوراه في الأدب المقارن. وعام 1966م أصدر كتابه الأول (جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية)، وهو أطروحة الدكتوراه في جامعة هارفارد.

أثناء تحضيره للدكتوراه في جامعة هارفارد، كان إدوارد يقرأ كمّيات كبيرة من الكتب، ولم يكن ملتزما بمنهج محدد، ومن الكتب التي قرأها في هذه الفترة كتاب (التاريخ والوعي الطبقي) لجورج لوكاش وكتاب (الرواية التاريخية)⁴.

وبعد أن أنهى الدكتوراه، وغادر إدوارد عام 1963م جامعة هارفارد، إلى جامعة كولومبيا، وزاد اهتمامه بالثقافة الفرنسيّة، قراءة ودراسة، بالإضافة إلى تعرّفه على الأدباء والمثقفين الفرنسيين واجتماعه بهم خلال مؤتمر ضخّم. وظلّ هذا التأثير قائما، حتى أواسط الستينيات حتى بداية السبعينيات من القرن العشرين. لقد خلص إدوارد سعيد إلى أنّ منهجه دائما يرفض أنظمة الآخرين⁵.

¹ إدوارد سعيد، خارج المكان، المصدر السابق، ص 113.

² صبحي حديدي، المرجع السابق، ص 106.

³ رجا زعاترة، مجلة الهوية، (إدوارد سعيد 1935-2003)، قطر: لجنة متابعة قضايا التعليم العربي، 2011م، ص 38.

⁴ صبحي حديدي، المرجع السابق، ص 107.

⁵ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

لقد صار إدوارد سعيد عازف بيانو من الدرجة الأولى ومن خلال مسيرته العلمية الحافلة، أتقن عدة لغات الانجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية والإيطالية، إلى جانب اللغة العربية¹.

المطلب الثالث: وفاته ومؤلفاته

لقد عانى إدوارد سعيد كثيراً في آخر حياته من مرض السرطان كثيراً، وتوفي بمدينة نيويورك في 25 سبتمبر 2003²، وهو في 67 من عمره³ خلفاً وراءه العديد من الكتب، والمقالات والأعمال منها ما كتبه بنفسه، ومنها ما أسهم في تحريرها، وأعمال أخرى قدم لها ومنها المشترك، ولقد أثارت هذه الكتابات الكثير من الحوار والجدل على صفحات المجلات والصحف البارزة في الغرب، وبوأتها خلال الربع الأخير من القرن العشرين مكانة رفيعة في حقول النقد الأدبي والدراسات الثقافية. كما تُرجمت العديد من كتبه، وعلى رأسها "الاستشراق"، إلى عدد كبير من اللغات العالمية⁴.

كتب إدوارد سعيد عشرين كتاباً وترجمت إلى ثلاثين لغة عالمية⁵، ومن بين كتبه: جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية (1966م). بدايات: القصد والمنهج (1975م). الاستشراق (1978م). القضية الفلسطينية (1979م). تغطية الإسلام (1981م)، العالم والنص والناقد (1984)، ما بعد السماء الأخيرة: حيوات فلسطينية (1986م). لوم الضحايا (بالاشتراك مع كريستوفر هيتشنز، 1988م). تنويعات موسيقية (1991م)، الثقافة والإمبريالية (1993م). سياسة السلب: الكفاح من أجل حق تقرير المصير الفلسطيني (1994م)، تمثيلات المثقف (1994م). غزة - أريحا: سلام أمريكي (1994م). القلم والسيوف (حوارات مع ديفيد بارساميان، 1994م). "أوسلو 2: سلام بلا أرض" (1995م). خارج المكان (وهو الكتاب الذي يروي سيرة إدوارد الذاتية ما بين القدس والقاهرة وأمريكا. ويكشف عن جذور عبقريته ودور والدته في دفعه باتجاه

¹ صقر أبو فخر، (إدوارد سعيد المنفى والانشطار والهوية المضطربة)، مجلة المجلة، المملكة العربية السعودية: الرياض، ماي، جوان، 2003م، عدد 1583، ص 34.

² صقر أبو فخر، المرجع نفسه، ص 38.

³ حلیم بركات، غربة الكاتب العربي، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط1، 2011م، ص 107.

⁴ صالح فخري، إدوارد سعيد دراسات وترجمات، الدار العربية للعلوم، بيروت لبنان، ط1، 2009م، ص 12.

⁵ إدوارد سعيد، خيانة المثقفين النصوص الأخيرة، ترجمة: أسعد الحسين، نينوى للدراسات والنشر وتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2011م، ص 10.

الأدب والفنّ والموسيقى (1999م). السلطة، السياسة، والثقافة: حوارات مع إدوارد سعيد (2002م). فرويد وغير الأوروبيين (2003م). المذهب الإنساني والنقد الديمقراطي (2004م). حول الأسلوب الأخير: الموسيقى والأدب ضد السائد (2006م). الموسيقى على التخوم (2008م)¹.

كذلك النقد العلمي 1988م، نظريات متجولة 1989م. دراسات موسيقية 1990م، تعقيبات على الاستشراق 1997م. نهاية عملية السلام: أوسلو وما بعدها 2002م. تأملات في المنفى، 2004م. من أوراق إدوارد سعيد 2004م².

بالإضافة إلى كتب أخرى شارك في كتابتها:

صورة الشعب الفلسطيني (مع إبراهيم وجانيت أبو لغد ومحمد حلاج وإليا زريق). القومية والكولونيالية والأدب (مع تيري إيفلتون وفريدريك جيمس). أعمال العدوان ضبط الدول المارقة (مع نعوم تشومسكي ورمزي كلارك). نظائر ومتناقضات في الموسيقى والمجتمع (مع دانييل بارنيبوم)³.

كما كتب عددا كبيرا من المقالات التي نشرتها أهم الصحف، والدوريات العالمية مثل الأهرام والحياة والغارديان وذا نيش وكانترينش واللوموند وغيرها. كما ألقى الكثير من المحاضرات في أشهر جامعات العالم⁴.

¹ صالح فخري، المرجع السابق، ص 12.

² خالد سعيد، إدوارد سعيد ناقد الاستشراق قراءة في فكره وتراثه، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2011م، ص 222.

³ إدوارد سعيد، خيانة المثقفين النصوص الأخيرة، المصدر السابق، ص 10.

⁴ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

المبحث الثاني: الاستشراق عند إدوارد سعيد.

إن الاستشراق، يشمل مجموعة من النظم المترابطة وفق أساليب متعددة، ويعتمد على حجج وبيانات تتمحور حول مسألة التمييز القومي، والأصول العرقية واللغوية والجغرافية، وتلطيض الضوء على موقف إدوارد سعيد من الاستشراق لابد من الوقوف على مفهوم الاستشراق عنده والذي يتعدد ويتداخل ويعني عدة أمور يعتمد بعضها على بعض وهي تمثيل الشرق والعلاقة بين السلطة والمعرفة ثم علاقة الغرب بالإسلام.

المطلب الأول: مفهوم الاستشراق عند إدوارد سعيد.

لقد كان تخصص إدوارد سعيد الأكاديمي في فقه اللغة والنقد الأدبي، وبسبب ما كانت تعيشه الأمة العربية عامة، والفلسطينية خاصة من ظلم واضطهاد مما دفع إدوارد سعيد للميل لقراءة العقل الغربي ورؤيته للشرق والشرقيين، واستغلالاً لتكوينه الأدبي تبلور مفهوم الاستشراق عنده أنه يعني ثلاثة أمور هي:

1- أنه مبحث جامعي أكاديمي، فالمستشرق كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء لبحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان ذلك في مجال علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة. ويرى أن المتخصصين يفضلون استخدام مصطلح الدراسات الشرقية أو مصطلح دراسات المناطق، لسببين، السبب الأول: هو أنه يتسم بقدر أكبر من الغموض والتعميم، والثاني: هو أنه من ظلال معانيه الإيحاء بالاستعلاء الذي كان المديرين الأجانب يتسمون به في عهد الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين¹، من خلال هذا التعريف يرى إدوارد سعيد أنّ كل ما أنتجه هؤلاء من خطابات يعدّ في رأيه خطاباً استشراقياً، ويعد هذا المعنى أيسر التعريفات المقبولة للاستشراق.

¹ إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص

2- الاستشراق هو أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى "الشرق" وبين ما يسمى في معظم الأحيان "الغرب"، وهكذا فإن عدداً بالغ الكثرة من الكتاب من بينهم شعراء وروائيون وفلاسفة وأصحاب نظريات سياسية واقتصاديون، ومدبرون إمبرياليون، فهؤلاء قد قبلوا التمييز الأساسي بين الشرق والغرب باعتباره نقطة انطلاق لوضع نظريات مفصلة، وإنشاء ملاحم، وكتابة روايات، وأوصاف اجتماعية، ودراسات سياسية عن الشرق، وعن أهله، وعاداته، وعن عقله، ومصيره¹. وفي هذا التعريف يحاول سعيد إبراز النزعة الاستعمارية الجديدة للغرب بأساليب مغايرة غير تقليدية للسيطرة على الشرق.

3- الاستشراق هو أسلوب غربي للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه. ويواصل إدوارد سعيد بقوله: "والحجة التي تطرح تقول إننا ما لم نفحص الاستشراق باعتباره لونا من ألوان (الخطاب)² فلن نتمكن مطلقاً من تفهم المبحث البالغ الانتظام الذي مكّن الثقافة الأوروبية من تدبير أمور الشرق - بل وابتداعه- في مجالات السياسة وعلم الاجتماع، وفي المجالات العسكرية، والأيدولوجية، والعلمية، والخيالية، في الفترة التالية لعصر التنوير. ولقد بلغ من توطيد مكانة الاستشراق أنّ أحداً لم يكن يُقدم على الكتابة أو التفكير أو اتخاذ أي إجراء بصدد الشرق دون أن يأخذ في حسبان القيد التي يفرضها الاستشراق على الفكر والعمل. وموجز القول إن الشرق لم يكن بسبب الاستشراق مجالاً لحرية الفكر أو العمل (ولا يزال الأمر كذلك). وليس معنى هذا أن الاستشراق هو الذي يحدد من جانب واحد ما يمكن أن يقال عن الشرق، ولكنه يعني أننا نواجه شبكة كاملة من المصالح التي تتداخل (وهي كذلك تشارك دائماً) في أيّ مناسبة تتعلق بذلك الكيان الغريب الذي يسمى (الشرق)"³.

¹ إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، المصدر السابق، ص 45.

² يتواتر استخدام هذا المصطلح في النظرية المعاصرة و غالباً يوظف في مجال النقد ما بعد الكولونيالي. والكلمة أصبحت تستخدم بصورة متزايدة لوصف الحديث أو السرد أو التناول المطول والمفصل لأي موضوع متسم بطابع رسمي أكبر، أو مبحث أو أطروحة أو عظة. واستخدم اللغويون الكلمة مؤخراً بمعنى تخصصي لوصف أية وحدة كلامية أطول من جملة. انظر: بيل أشكروفت وآخرون، المرجع السابق، ص 139.

³ إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، المصدر السابق، ص 46.

ويختصر إدوارد سعيد رأيه في مفهوم الاستشراق بأنه يشتمل على العديد من الأوجه المتداخلة ليس مجرد موضوع، أو مجال، أو نظريات، أو مجموعة من النصوص المكتوبة عن الشرق، لا بل إنه الوعي الجغرافي السياسي المبتوث في النصوص العلميّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والتاريخيّة، واللغويّة. وعلى هذا يكون الاستشراق عند إدوارد سعيد يقوم على التعريفات الثلاثة دون الاكتفاء بواحد منها فقط.

المطلب الثاني: تمثيل الشرق

تعمّق إدوارد سعيد في دراسة الاستشراق سعياً منه لإيجاد العلاقة التي تربط بين الشرق بالغرب، وخاصة مدلول مصطلح الشرق الذي كان محور الدراسات الاستشراقية ذات النظرة التشويهيّة للشرق. وجعلت لإدوارد سعيد منطلقاً في مناقشته للعلاقة بين الغرب والشرق، حيث أوضح سعيد كيف استغل المستشرقون في تصويرهم للشرق ناحيتين فنيّتين ارتكزت عليهما صورة الشرق:

أولاهما: الناحية الأكاديمية التي شكلت غطاءً شرعية تُزعم من تحته البراءة، فالباحث الأكاديمي تتمتع أقواله بالمصداقية. وبهذا فإن الاستشراق يصبح في هذه الحالة أداة في متناول المؤرخين، ومن ثم السياسيين¹. ولقد تعددت مجالات التأليف في الدراسات العربية والإسلامية لدى المستشرقين وبلغ عدد ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب².

ثانيهما: الخيال. فقد صاغ المستشرقون صورة للشرق بخيال جعل هذه الصورة تبدو وكأنها تمثيل أو انعكاس خفي للواقع. وكان لهذه الممارسة أكبر الأثر في تسويق الاستشراق من خلال مصداقية الخيال المعهودة، فالذي يقرأ ما كتبه المستشرقون عنّا يقع تحت تأثير الخيال ومن ثم يصدق الصورة³.

¹ إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، المصدر السابق، ص 86.

² محمود حمدي زقزوق، المرجع السابق، ص 67.

³ تركي بن خالد الظفيري، تركي بن خالد الظفيري، الاستشراق عند إدوارد سعيد رؤية إسلامية، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، المملكة العربية السعودية، ط2، 2015م، ص 87.

وتساءل سعيد عن سبب رسم المستشرقين لهذه الصورة عن المشرق التي نتج عنها تشويه له وجعله مبهما وعالما عربيا شريرا ومخيفا. ويجيب إدوارد أنّ العداء هو الذي منع التبادل الطبيعي بين الثقافات¹.

ويرى إدوارد سعيد أن تمثيل الشرق في كتابات المستشرقين لا تؤثر في الدراسات الأكاديمية فحسب بل في رؤية أبناء البلدان التي تحررت من الاستعمار وما أورثه الاستعمار للفرد في هذه البلدان من نظرة دونية إلى ذاته².

ونجد أنّ إدوار سعيد قد وظّف العلاقة بين الشرق والغرب من خلال مفهوم القوة والسيطرة والاحتلال وجاء في قوله: "أن تصوير الغرب للشرق كان مبنيا على مصالح السيطرة الإمبراطورية وكان من امتياز السلطة، حاولت غزو الشرق، ابتداء من نابليون في نهاية القرن الثامن عشر ومرورا بتوسيع بريطانيا وفرنسا نحو الشرق، لون التصوير وشكله فعليا كان ذلك بعيدا عن الموضوعية والعلمية"³.

وهذا ما يؤكده إدوارد سعيد في قوله: "أنا أعتقد شخصيا أن القيمة الكبرى للاستشراق تكمن في كونه دليلا على السيطرة الأوروبية الأمريكية على الشرق أكثر من كونه خطابا صادقا حول الشرق (وهو ما يزعمه الاستشراق في صولاته الأكاديمية أو البحثية)"⁴.

وبالتالي هذا ما يوضح أن الاستشراق يعدّ مجموعة من الأكاذيب أو الأساطير وأنّ الهدف الأساسي للاستشراق يكمن في السيطرة الأوروبية الأمريكية على الشرق وأنّ جلّ الدّراسات الأوروبية لحضارة الشرق تهدف إلى تأكيد الصورة الدّونية والسلبية عن الشرق.

ونلاحظ أنّ هذه الصورة التي جسّدها الغرب عن الشرق هي صورة غير حقيقية، وأن الشرق في نظر إدوارد سعيد شرق له عمق تاريخي وجغرافي. وشرق وصف بأحكام وأفكار وهمية خيالية غير واقعية، أي تم فرض القوّة والسيطرة عليه وبالتالي فإنّ كل الصّور التي تمثل الشرق أو

¹ إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، ترجمة: نائلة فلقيلي حجازي، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، ص 262.

² إدوارد سعيد تغطية الاسلام، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2005م، ص 11.

³ المصدر نفسه، ص 263.

⁴ إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، المصدر السابق، ص 50.

نسبت إليه هي خدمة المصالح الغربية، وأنّ اهتمام الغرب بالشرق كما وضّحه إدوارد سعيد ليس صدفة بل كان اهتماما مقصودا وكانت له أهدافا وغايات خاصة ومسبقة لأنه كان يخص الشرق الأوسط لا غير.

المطلب الثالث: السلطة والمعرفة

يرى إدوارد سعيد في كتاباته عن الاستشراق أنّ هناك علاقة جدلية تربط المعرفة بالسيطرة والقوة؛ في العلاقة بين الغرب والشرق وبصورة أدق سيطرة الغرب على الشرق باستخدام المعرفة، ومن هنا عالج إدوارد سعيد موضوعه الاستشراق بصفته أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه.

ذكر إدوارد سعيد في دراسته للاستشراق أنه سيدرس الاستشراق، ويبرز هذه العلاقة باعتبارها صورة للتبادل؛ أي التفاعل الدينامي بين المؤلفين الأفراد والمشاعل السياسية الكبرى التي شكلتها الإمبراطوريات العظمى الثلاث البريطانية والفرنسية والأمريكية، وهي التي نبتت في تربتها الفكرية والإبداعية كتاباتهم¹.

وهذا ما سعى إليه إدوارد سعيد في الاستشراق لم يكن مجرد تقديم قراءة نقدية لمنظور الحقل واقتصاده السياسي، بل أيضا الموقف السياسي. الثقافي الذي يجعل خطابه ممكنا وقابلا للبقاء إلى هذا الحد. والسلطة المؤسساتية وتقوم في المحصلة بوظيفة الرؤية العالمية المسلحة بقوة هائلة ليس من السهل تصريفها تحت لائحة الأبتستولوجيا والخطابات التي على شاكلة "الاستشراق" في نظري بنية أقيمت في زحمة تنافس إمبريالي كثيف، مثلت تلك البنية جناحه المهيمن فانبثقت لا كمهنة بحثية بل كإيديولوجي متحيز².

تأثر إدوارد سعيد في مسألة العلاقة بين السلطة والمعرفة في كتاباته بالفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو، الذي اقتنص منه الفكرة وبنى عليها عددا من الأطروحات التي توضح سيطرة الغرب على الشرق باستخدام المعرفة. يعتقد "فوكوه" أنه يمكن لمجموعة من الناس أن تمتلك أزمة السلطة لخلق

¹ إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، المصدر السابق، ص 61.

² إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، المصدر السابق، ص 71.

وجهة نظر عالمية - أو إعادة صياغة العالم - إذا تسلحوا بالمعرفة، ويرى أن كلا من السلطة والمعرفة يتضافر أحدهما مع الآخر، وأن سيادة السلطة والهيمنة في الوقت نفسه يهدفان إلى المعرفة، وأن المعرفة تُنشئ القوة التي تباعا لا يمكن أن تمارس بدون المعرفة¹.

استمد إدوارد سعيد كذلك من "فوكو" منهجه الذي يربط كل أشكال المعرفة وكل أساليب التمثيل الثقافي للآخر بممارسات السلطة؛ مما يعني أنّ "المعرفة بالأجناس المحكومة، أو الشرقيين هي التي تجعل حكمهم سهلاً ومجدياً، فالمعرفة تمنح القوة ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة"².

فمن هذا المنطلق كان للسلطة استغلال المعرفة من أجل التسهيل في السيطرة على الشعوب وكلما كانت المعرفة بها أكثر كلما كانت السيطرة أقوى وأحكم.

ويوضح إدوارد سعيد ذلك بقوله: "كانت النتيجة أن بات الغرب يمارس من خلال هذه المعرفة قوّته وهيمنته على الشرق متمصصة هيئة راع غربي نشط يعرف ويسيطر على رعيته شرقية مستكينة: الغرب فاعل والشرق واقع عليه الفعل. وهذا النشاط المعرفي يمثل أسوأ أنواع الاستشراق على الإطلاق، إذ يصبح الاستشراق فيه وظيفة يستخدمها الآخرون من السياسيين، وغيرهم كعدسة أو كتركيب يرى الغرب الشرق من خلاله على أنّه شرقه تاريخية؛ حتى يبرر لنفسه توجيهه والسيطرة عليه بالطريقة التي يراها مناسبة"³.

وسعيد يرى أن الاستشراق خطاب منظم وهذا يفضي إلى أنه معرفة مكتوبة ومدونة على حدّ تعبيره، لكن بما أنّ الدراسات الاستشراقية، تكون من الواقع إلى الواقع فهي تحمل سلطة وراء النصّ حيث نجد "سعيد" حوّل المعنى الذي يرمي إليه من خلال نقده للاستشراق⁴.

¹ تركي بن خالد الظفيري، المرجع السابق، ص 91.

² محمود حمدي زقزوق، المرجع السابق، ص 51.

³ إدوارد سعيد، رواية للأجيال، محمد شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص 75.

⁴ هالة ماضي: مفهوم الاستشراق في فكر إدوارد، مذكرة ماستر فلسفة، غير منشورة، جامعة محمد بوضياف، المسيلة: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة، 2015، 2016م، ص 56.

إنّ فكرة العلاقة بين المعرفة والسلطة جعلت من إدوارد سعيد يسلط الضوء عليها في فكره وكتبه، لكشف سياسة الغرب الذي يملك المعرفة التي جعل منها سلاحاً للسيطرة والإمبريالية¹ واضطهاد الشعوب الشرقية المستضعفة التي يرى دونيتها، فمن يملك معرفة أكثر تكون حظوظه في السيطرة أكثر، وهذا سر العلاقة بين السلطة والمعرفة.

المطلب الرابع: الإسلام والغرب

تناول إدوارد سعيد في كتاباته مسألة العلاقة بين الغرب والإسلام، ولقد حاول جاهداً التصدّي لكل الهجمات التي استهدفت الإسلام، والحضارة الإسلامية والعربية، ودفع التشويه والتشكيك الذي طاهم من طرف المستشرقين. من منطلق رد الظلم.

حين طلب من إدوارد سعيد إلقاء محاضرات عن حقيقة الجمهورية الإسلامية أو طريقة الإسلام في السلام فقال: "فوجدت نفسي أمام أمرين: إما أن أدافع عن الإسلام -وكأن الدين بحاجة لذلك النوع من الدفاع- أو أن ألتزم الصمت فأبدو كمن يوافق ضمناً على تشويه سمعته"². فبالرغم من كون سعيد مسيحياً لكنّه أبقى إلاّ أن يرد الظلم عن الإسلام ورفض تشويهه من طرف الغرب.

كانت بداية كشف إدوارد سعيد لعلاقة الغرب بالإسلام انطلاقة من أنّ مفهوم الشرق الجغرافي عند الغرب يقتصر اقتصاراً صارماً على الشرق الإسلامي³، وتطور إلى أن أصبح مفهوم الشرق بصورٍ ويعني الإسلام هو النموذج الشرقي الأساسي⁴.

¹ في معناها الأعم، تشير الإمبريالية إلى تكوين إمبراطورية، وهي في حدّ ذاتها قد كانت ملمحاً لكل فترات التاريخ حيث بسطت إحدى الأمم سيادتها على واحدة، أو العديد من الأمم المجاورة. يستخدم "إدوارد سعيد الإمبريالية بهذا المعنى العام ليعني الممارسة، والنظرية، والمواقف التي يملكها مركز حواضري مسيطر يحكم أرضنا بعيدة. انظر بيل أشكروفت وآخرون، المرجع السابق، ص 205.

² إدوارد سعيد، الإسلام في عيون الغرب ومقالات أخرى، ترجمة: حيان الغري، دار هدى، حمص، سوريا، (د.ط)، 2005م، ص 6.

³ إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، المصدر السابق، ص 144.

⁴ المصدر نفسه، ص 12.

ويزيد إدوارد سعيد في كشف خبايا العلاقة بين الإسلام والغرب بقوله: "وانطلاقاً من الموقف الذي نظر إلى الإسلام، دائماً بصفته ينتمي إلى الشرق فقد كان قدر الإسلام الخاص في نطاق النظام الاستشراقي العام، أن ينظر إليه في المقام الأول، كأنه كتلة واحدة صلدة لا تمايز أو تعدد فيها ثم ينظر إليه بنوع خاص جداً من العدا والخبوف"¹.

وكتاب "الاستشراق" يزخر بنقاش موسع حول نظرة الغرب للإسلام من بدايته إلى نهايته، ينتقل فيه سعيد من تحليل الصور التمثيلية المزدحمة في كتب المستشرقين، والمشوهين لحقيقة الإسلام إلى الشاء والتوقف عند من حاول مواجهة التيار ليبين الصورة الصادقة للإسلام. بل وأشار صراحة أنّ من أهداف الدولة الاستعمارية هدف خدمة النصرانية ودعم المشروع التبشيري، فالاستعمار كان يعني تحديد المصالح، بل وخلقتها حلقة، وقد تكون هذه المصالح تجارية، أو خاصة بالاتصال، أو دينية، أو عسكرية، أو ثقافية². ففي ما يتعلق بالإسلام والأراضي الإسلامية، مثلاً، كانت بريطانيا ترى أن لها مصالح مشروعة، باعتبارها دولة نصرانية، عليها أن تحميها. ونشأ جهاز معقد لرعاية هذه المصالح، مثل جمعية تعزيز المعرفة المسيحية (1668م)، وجمعية نشر الإنجيل في البلاد الأجنبية (1701م) وجمعية التبشير المعمداني (1792م)، والجمعية التبشيرية الكنسية (1799م)، وجمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية (1804م)³.

ويحدد لنا إدوارد سعيد طبيعة هذه العلاقة في ثلاثة عوامل جعلت من تفهم العرب والإسلام مسألة مشبعة بالدلالات السياسية العالية النبرة. أما العامل الأول فهو تاريخ التعصب الشائع في الغرب ضد العرب والإسلام، وهو الذي يتجلى مباشرة في تاريخ الاستشراق، والعامل الثاني هو الصراع بين العرب والصهيونية الإسرائيلية، والعامل الثالث هو الانعدام شبه التام لأي موقف ثقافي يتيح للفرد التعاطف مع العرب أو الإسلام⁴.

¹ إدوارد سعيد، الإسلام والغرب، تحرير: سعيد البرغوثي، دار كنعان، دمشق، سوريا، ط1، 2014م، ص 21.

² تركي بن خالد الظفيري، المرجع السابق، ص 102.

³ إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، المصدر السابق، ص 179.

⁴ المصدر نفسه، ص 78.

وأكد أنه لم يكن بمقدوره العثور على فترة في التاريخ الأوروبي والأمريكي اللاحق للقرون الوسطى نوقش فيها الإسلام بشكل عام خارج إطار الانفعال والتحامل والمصالح السياسية. وهذا يؤكد العداء التاريخي الغربي للإسلام وعدم إنصاف المفكرين والمستشرقين الغربيين، ووضح إدوارد سعيد أنّ خطابات أمثال "بيتر المجل"، و "بارثيلمي دي هيريلوت" اتسم بالجدال الانفعالي العنيف، وأنّ أوروبا منذ تقدمت في العصر العلمي الحديث وتحررت من الخرافة والجهل كان لابد لمسيرتها أن تشمل الاستشراق. كما شكك سعيد في موضوعية كلا من "سيلفستر دي ساسي"، و "إدوارد لين"، و "إرنست رينان"، و "هاميلتون جيب"، و "ليويس ماسينون" وطرح سؤالاً هل كانوا علماء ومثقفين موضوعيين وكانت إجابته طبعاً بالنفي¹.

أمّا في عصرنا الحاضر قد لخص إدوارد سعيد علاقة الإسلام بالغرب بقوله: "فقد غدا العالم الإسلامي مادة للإشباع الغربي الثقافي والاقتصادي عمقا في التاريخ إذ لم تهيمن الولايات المتحدة على أي عالم غير غربي كما يخضع العالم العربي الإسلامي اليوم للتعامل الأحادي الجانب بين الإسلام والغرب الذي تمثله الولايات المتحدة في هذه الحالة. وطالما تبدو الولايات المتحدة متورطة، فهناك بعض المبالغة في القول أنّ المسلمين والعرب إمّا أن يكونوا موردين للنفط أو إرهابيين محتملين"².

وخلاصة القول لسعيد في الأخير أنّ من المبادئ السياسية لتفسير الإسلام أنّه توجد معرفة صحيحة ومعرفة مضادة، متمثلة في ظل الظروف الراهنة، حيث لا يعيش الإسلام في سلام مع الغرب ولا يعيش الغرب في سلام معه، بل ولا يعيش كل منهما في سلام مع ذاته³.

¹ إدوارد سعيد، الإسلام في عيون الغرب ومقالات أخرى، المصدر السابق، ص 7.

² المصدر نفسه، ص 9.

³ إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، المصدر السابق، ص 274.

المبحث الثالث: نقد إدوارد سعيد للاستشراق.

لقد استخدم المستشرقون عدة مناهج وظّفوها في خدمة السلطات الاستعمارية الغربية للسيطرة على الشرق، وفرض رؤيتها عليه مما حتم على إدوارد سعيد أن يستخدم ويبتكر أساليب جديدة، ومناهج وأفكار مقاومة لكيدهم وكاشفة لمكرهم، وفاضحة للنظرة الدنيئة الاستعمارية التي كان الغرب يعامل بها الشرق. ومن هذه المناهج التي عمل عليها إدوارد سعيد المنهج البنيوي، والنزعة الإنسانية، والقراءة الطباقية التي يأتي التفصيل فيها تباعاً.

المطلب الأول: المنهج الدنيوي.

يعتبر المنهج الدنيوي من أهم الجوانب التي ارتكز عليها إدوارد سعيد في نقده للاستشراق وأتى إدوارد سعيد بهذا المنهج في مقابل المنهج البنيوي والذي عرفه النقاد العرب ومنهم عبد السلام المسدي بأنه: "يعتزم الولوج إلى بنية النص الدلالية من خلال بنيته التركيبية"¹.

كما عرّفه فائق مصطفى وعبد الرضا على أنه: "منهج فكري يقوم على البحث عن العلاقات التي تعطي العناصر المتحدة قيمة، ووصفها في مجموع منتظم مما يجعل من الممكن إدراك هذه المجموعات في أوضاعها الدالة"².

ينطلق البنيويون من ضرورة التركيز على الجوهر الداخلي للنص الأدبي، وضرورة التعامل مع النص دون أية افتراضات سابقة من أي نوع من مثل علاقته بالواقع الاجتماعي أو بالحقائق الفكرية أو بالأدب وأحواله النفسية والاجتماعية. لأن العمل الأدبي - كما يرون - له وجود خاص وله منطقته ونظامه، أي له بنية مستقلة، هذه البنية - العميقة أو التحتية أو الخفية - هي مجموعة من العلاقات الدقيقة التي تؤلف فيما بينها شبكة من العلاقات³.

¹ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية دراسة ونماذج، وزارة الثقافة، تونس، ط1، 1991م، ص 77.

² فائق مصطفى و عبد الرضا، في النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات، دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد، العراق، (د.ط)، 1989م، ص 182.

³ شكري عزيز ماضي، في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص 177.

وتخلص المفاهيم السابقة وإن تعددت أنّ البنيوية منهج نقدي يعنى بدراسة النصوص الأدبية من داخلها، وقراءة النص قراءة ميتة بعيدة عن علاقتها بالواقع، وهذا ما يرفضه إدوارد سعيد فهو يرى أنّ للنص ارتباطاته الدنيوية التي يجب على الناقد أن يبرزها، ويوضح دورها في تشكيله على النحو الذي وصلنا¹.

أما مصطلح "الدنيوية" "Secularism"، بصفة عامة يقصد به عدم المبالاة بالدين أو الاعتبارات الدينية، وهو مصطلح قريب من مصطلح العلمانية².

فالدنيوي كلمة مفتاحية وفكرة عند إدوارد سعيد يستخدمها باستمرار للدلالة على العام التاريخي، الذي يستحيل على أي منّا التفلّت ولو نظرياً من شروطه³. وعند التأمل في مراد إدوارد سعيد بمصطلح الدنيوية، نجد تارة يريد الأحداث الدنيوية والتاريخية بالنص، وتارة يقصد به المعنى المضاد للدين والتي يعبر عنها بالعلمانية⁴. وعموماً تتصل مقارنة "الدنيوية" لدى إدوارد سعيد بالواقعية بالمعنى العام⁵. والدنيوية كذلك استراتيجية نقدية وثقافية مقاومة لتردي الواقع ومقاومة للمركزية الغربية وما نتج عنها من حالة الاستقطاب الحاد بين الفكرة الغربية والفكرة الشرقية⁶.

ينقد سعيد كلا من النظرية الأمريكية وحتى الأوروبية التي قامت على مركزية النصية، وصارت تتقبّل عدم التدخل دون تحفّظ، وطريقتها في اختيار موضوعها لا تعني أبداً أخذ أي شيء دنيوي أو ظرفي أو ملوّث اجتماعياً؛ فصارت النصية نقياً حقيقياً للتاريخ، بعد تنحيته والحلول محلّه، وعزلت

¹ تركي بن خالد الظفيري، المرجع السابق، ص 135.

² جمال شحيد ووليد قصاب، خطاب الحداثة في الأدب (الأصول والمرجعيات)، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2005م، ص 14.

³ إدوارد سعيد، الأنسية والنقد الديمقراطي، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص 70.

⁴ تركي بن خالد الظفيري، المرجع السابق، ص 135.

⁵ جمال مقابلة وعلي عشا، (دنيوية النص الأدبي لدى إدوارد سعيد: قراءة في المصطلح)، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، الأردن: جمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية، المجلد 5، العدد 2، 2008م، ص 280.

⁶ - المرجع نفسه، ص 281.

النصية في أغلب الأحوال عمّا هو زمني¹؛ أي عزلت النص عن التاريخ، والناقد يعزل النص باعتباره إنجازاً ثقافياً عن إطاره الاجتماعي والتاريخي، وهذا ما ينتقده سعيد بشدة حين يعيد النص إلى الدنيا مركزاً على واقعيته وفاعليته، مقابل أولئك النقاد.

تعتبر الدنيوية العصب الحقيقي لتيار ما بعد الكولونيالية ومن المفاهيم التي تناولها إدوارد سعيد الذي يكشف بجلاء عن الإبدال الجديد الذي افترعه إدوارد سعيد في مسار النظرية الأدبية الحديثة. فخلافاً لاتجاهات ما بعد البنيوية التي غالت في بتر النصوص عن سياقها الخارجية. مركزة في التفاعل مع أنساقها التخيلية على اللعب الحر للدوال. ما ينتج عنها من إمكانيات تدليلية وافرة². فالنص لا يمكن فصله عن مجتمعه الذي تنبني فيه ثقافته، وخلافاً للبنيوية التي أهملت وأسقطت الخارج النصي واعتبرته مجموعة من النظام اللغوي المتشابك بين عناصره، فسعيد يرى عكس ذلك بعدم بتر وقطع النص عن سياقه الخارجي لأنه يحمل في طياته علامات، ومدلولات خارج نصية تتمثل داخله فأى نص أدبي مثقل بطريقة ما³.

وتتحلى الدنيوية بأثماً مصطلح نقدي عند إدوارد سعيد يقصد به النصوص الأدبية في الوجود، وأثماً متصلة بزمانها ومكانها وبيئتها، بحيث لا يمكنها الانفصال عنها. ولهذا يرفض أن نتعامل مع النص بوصفه بنية جامدة، ومن المفيد أن ننظر إليه على أنه فعل متموضع في العالم، أي أنه نتاج ثقافي، وفعل ثقافي في علاقة مع السلطة التي أنتج ضمنها⁴.

ويؤكد إدوارد سعيد موقفه بضرورة الاهتمام بالأحداث والظروف، والملابسات التي نجمت عنها النصوص، ويعده أمراً مهماً فيقول: "فموقفي هو القول بأن النصوص دنيوية، وهي أحداث إلى

¹ إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2000م، ص 8.

² إدوارد سعيد، من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف، ترجمة: محمد الجرطي، منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا، ط1، 2016، ص 10.

³ أحمد العارف، (التجربة النقدية عند إدوارد سعيد: قراءة في المنجز النقدي ما بعد الكولونيالي)، مجلة أبعاد، الجزائر: جامعة وهران 2، العدد 07، ديسمبر 2018م، ص 208، 209.

⁴ بيل أشكروفت وبال اهلواليا، إدوارد سعيد مفارقة الهوية، ترجمة: سهيل نجم، دار الكتاب العربي، دمشق، سوريا، ط1، 2002م، ص 31.

حدّ ما، وهي فوق كل هذا وذاك قسط من العالم الاجتماعي والحياة البشرية وقسط بالتأكيد من اللحظات التاريخية التي احتلت مكانها فيها وفسرتها حتى حين يبدو عليها التكرار لذلك كله"¹.

وقد استخدم إدوارد سعيد هذا المصطلح في كتابه "الاستشراق" أول ما استخدمه حيث أورده عنواناً فرعياً، من عناوين الفصل الثالث في الكتاب، وقد ترجمه كمال أبو ديب "دنيوية الاستشراق" وكان إدوارد سعيد يقصد به مدى خضوع المستشرقين في كتاباتهم لشروط العيش في هذا العالم الطبيعي، ودعواهم بأنهم تجريبون وعلميون وغير خاضعين لفكر ديني، أو تصورات غيبية في رسم صورة الشرق وتمثيله في أذهانهم وكتاباتهم².

ومن أمثلة تطبيق فكرة الدنيوية عند إدوارد من كتابه "الثقافة والإمبريالية"، كيف يتعامل مع النص بطريقة دنيوية، يقول: "إذا غاب عن نظرنا أو تجاهلنا السياق القومي والعالمي لتمثيلات "ديكنز"³، مثلاً لرجال الأعمال الفيكتوريين، وركزنا فقط على التناسق الداخلي لأدوارهم في رواياته، فستفوتنا رابطة جوهرية بين فنّه الروائي والعالم التاريخي لهذا الفن. وفهم هذه الرابطة لا يخفف أو يقلص من قيمة الروايات كأعمال فنية، بل على العكس، فإن هذه الروايات بفضل دنيويتها، وبفضل الوشائج المعقدة المتشابكة بينها وبين إطارها المشهدي الواقعي، هي أكثر إشراقه وأعظم واقعية كأعمال فنية"⁴.

وتمكن إدوارد سعيد من حلّ العلاقة الشائكة التي تربط بين الإمبريالية الغربية والسلطة والنصوص الأدبية ذات الثقافة الموجهة التي فرضت فيها الإمبريالية هيمنتها، وتاريخها وحضارتها على السكان الأصليين "ويمكن القول بأنّ معالم التفرد عند إدوارد سعيد في تناوله لمفهوم الدنيوية داخل ممارسته النقدية، تتجلى في توسيعه لدائرة المرجعي ليمتد إلى تحليل ما يمكن خلف البنيات النصية من قوى مادية تكشف علاقة المعرفة بالسلطة، وتشابكها مع كل ما هو مؤسّساتي وهو الأمر الذي مكّن

¹ إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، المصدر السابق، ص 8.

² جمال مقابلة وعلي عشا، المرجع السابق، ص 275.

³ تشارلز ديكنز (1812-1870م) روائي إنجليزي يعتبر بإجماع النقاد أعظم الروائيين الإنجليز بلا استثناء، من آثاره: (أوليفر تويست). أنظر منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، 1992م، ص 196، 197.

⁴ إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط4، 2014م، ص 84.

سعيد من التقاط ما تتبطن به النصوص الأدبية الغربية من صور جاهزة عن الشرق، تتغياً تسويره في خانة التابع والهامشي، لتسييد الخطاب الاستعماري وتأييد هيمنته، وهو ما أغفله العديد من النقاد الماركسيين أمثال ريموند وليامز وفريدريك جيمسون وبهير ماشيري وآخرين¹.

وسعيد يرى أن النصوص الأدبية التي كتبها الغرب تحمل سمّ الإمبريالية الغربية التي تهيمن وتسيطر على السكان الأصليين، واعتبر هذه "النصوص كيانات موجودة في العالم، وحاضنة للأسئلة والقضايا المعتملة في منابها التاريخية والاجتماعية"².

فالنصوص الأدبية عند سعيد تعتبر وحدات ثقافية نابعة من المجتمعات التي صدرت منها وتنتمي إليها ولا يمكن سلخها عن تاريخها وثقافتها التي نشأت فيها وبالتالي فالدنيوية مسألة مركزية بالنسبة لإدوارد سعيد، حيث تتصل بالواقعية وبالنزعة الإنسانية وبالواقع التاريخي الذي يستحيل التفكك منه، والمنطلق المعبر، وأساس فكري لنقد الثقافة الغربية، فمشروع الاستشراق عنده يعتبره كمقاومة لتحرر من الصور النمطية الغربية عن العالم الشرقي.

المطلب الثاني: النزعة الإنسانية

يطرح إدوارد سعيد فهمه للأنسنية في كتابه "الأنسنية والنقد الديمقراطي"، الذي يتكون من خمس محاضرات ألقاها سعيد في جامعة كولومبيا عام 2000م، ثم أضاف إليها وعدّها وألقاها في كامبريدج عام 2002م أثناء مرضه³. ويمكننا معرفة آراء إدوارد حول الأنسنية ومفهومه لها من خلال هذا الكتاب حيث يقول: "إنّ صميم الأنسنية هو الفكرة العلمانية القائلة: إن العالم التاريخي هو من صنع البشر من رجال ونساء، لا من صنع رباني، وإنه يمكن اكتناحه عقلياً وفق المبدأ الذي صاغه "فيكوه" في (العلم الجديد) إذ قال: إننا ندرك فقط ما قد أنتجناه. وبعبارة أخرى، إننا نستطيع أن

¹ إدوارد سعيد، من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء المهجنة والاختلاف، المصدر السابق، ص 9.

² المصدر نفسه، ص 8.

³ إدوارد سعيد، الأنسنية والنقد الديمقراطي، المصدر السابق، ص 13.

نعرف الأشياء وفقاً للطريقة التي بها صنعت"¹. يؤكد سعيد على إنسانية القيم التاريخية من غير تأثير لأية قوة إيديولوجية.

اشتهر إدوارد سعيد بنقاد "الإنسانية باسم الإنسانية" وذلك من خلال تحليلاته للقيم التاريخية والفلسفية والأدبية، التي تنطوي عليها النزعة الإنسانية الغربية، من قوة إيديولوجية مارست تأثيرها على الثقافات الغير غربية، وقد أثار مؤلفه، "الأنسية والنقد الديمقراطي" نقاشات حادة، حيث يعتبر تجسيدا لنزعة الإنسانية المقاومة والمناضلة، وبالتالي يعرض فيه رؤى إنسانية جديدة².

والإنسيّة أو الإنسانية يمكن القول بأنها تمثل أخلاقية التّبلّ البشري. وكانت موجهة في اتجاه الدراسة النظرية والتطبيق العملي في آن معا. إنّها تعترف بعقريّة الجنس البشري، بل وتمجّد عظمة الإبداع الإنساني وتواجه قوة الطبيعة الميتة بالقوة الحيّة للإنسان. إنّ النزعة الإنسانية هي ذلك الجهد الذي يبذله الإنسان لكي ينمي في داخله، وبواسطة النظام الصارم والمنهجي، كل الطاقات البشرية، فلا يترك شيئاً يضيع مما يعظم الإنسان ويمجده³.

وبما أنّ المقصود بـ «الأنسية» أو النزعة الإنسانية أن الإنسان صانع لتاريخه وأنّه قادر على توسيع هذا الصنع وفتحه على آفاق متجددة، وبأنّ إمكانيات الإنسان واحدة متماثلة، دون النظر إلى الأعراق والأديان والثقافات، رغم سياقات مختلفة تدعم غايات الإنسان في بيئة محددة وتعوّق مساره في بيئة أخرى. دفع هذا التّصور بسعيد إلى رفض «المركزية الأوروبية»⁴ التي جعلت من الإنسان الأوروبي مركزاً للعالم، وقاده إلى الدفاع عن «التعددية الثقافية الإنسانية»، ذلك أن لكل شعب من الشعوب ثقافة خاصة به. ولعل هذا الانفتاح على الثقافة الإنسانية، في ألوّنها المختلفة، هو الذي

¹ إدوارد سعيد، الأنسية والنقد الديمقراطي، المصدر السابق، ص 27.

² فخري صالح، المرجع السابق، ص 53.

³ هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص 82.

⁴ هي العملية الواعية أو غير الواعية التي من خلالها تتشكل أوروبا والافتراضات الثقافية الأوروبية بوصفها - أو يفترض أنها - المؤلف، أو الطبيعي، أو العالمي، وهي تحيز للمناطق المعتدلة الأوروبية في توزيع الحجم. وتجسيد ايدولوجي وميثولوجي للمساحة يتيح أراضي العالم للسيطرة والاستغلال. انظر بيل أشكروفت وآخرون، المرجع السابق، ص 164.

أملى على سعيد استنكار الهويات المغلقة، كما الدعوة إلى هوية إنسانية مفتوحة، توائم بين جذورها وموروثها والمعطيات الثقافية الإنسانية كافة¹.

ركز إدوارد اهتمامه على دراسة الحركة الأنسية والممارسة النقدية، استنادا إلى قناعته بأنّ الأنسية مذهب نقدي يوجه سهامه إلى الأوضاع السائدة داخل الجامعة وخارجها، مذهب يستمد قواه وقيمه من طابعه الديمقراطي العلماني المنفتح، وهو الموقف الذي لا تتبناه بالتأكيد الأنسية العيابة والمترمة التي ترى إلى ذاتها على أنّها تكوين نخبوي².

لا يرى إدوارد سعيد تناقضا بين ممارسة الأنسية وبين ممارسة المواطنة التشاركية، ذلك أنّ الأنسية لا تمت بصلة إلى الانكفاء ولا إلى الإقصاء. بل بالعكس تماما، إنّ هدفها هو التمحيص النقدي للأشياء بما هي نتاج للعمل البشري وللطاقات البشرية على التحرر والتنوير، وعلى القدر ذاته من الأهمية يقع التمحيص النقدي لسوء القراءة وسوء التأويل البشريين للماضي الجمعي كما للحاضر الجمعي. فلن يوجد قط سوء تأويل لا يمكن مراجعته وتحسينه وقلبه رأسا على عقب. ولن يوجد فقط تاريخ لا يمكن استعادته، إلى حد ما، وفهمه بشغف بكل ما فيه من عذابات وإنجازات. وعكسا لن يوجد قط مظلمة سرية معيبة أو قصاص جمعي وحشي، أو خطة سيطرة إمبراطورية معلنة لن يمكن فضحها³.

استفاد إدوارد سعيد من كتابات ميشيل فوكو ورغم تأثيرها الواضح على عمله، إلا أنّه نأى بنفسه عن الرؤية الكليّة المناهضة للنزعة الإنسانية التي تغوص عميقا في عمل ميشيل فوكو، وآثر أن يأخذ من فكر الأخير جوانبه التقنية دون المنظور الكلي لعلاقة الإنسان بالسلطة وطرائق عملها. ظل سعيد مؤمنا بالنزعة الإنسانية وأفكار التنوير التي تدعو إلى العدالة والمساواة والتحرر والتعلم، وأن مثل

¹ فيصل درّاج: (إدوارد سعيد والدعوة إلى إنسانية جديدة)، بحث منشور على شبكة الأنترنترنت (<http://www.addustour.com>)، تاريخ الاطلاع: 2022/04/07م

² حازم خيرى، إدوارد سعيد، "أنسية بلا ضفاف"، بحث منشور على شبكة الأنترنترنت (<https://www.ahewar.org>)، تاريخ الاطلاع: 2022/04/07م.

³ إدوارد سعيد، الأنسية والنقد الديمقراطي، المصدر السابق، ص 42.

هذه الأفكار قد ساعدت البشرية على مقاومة الحروب غير العادلة والاحتلال العسكري والظلم والاستبداد¹.

يشدد سعيد على أن جوهر الأنسنة هو إدراك للتاريخ البشري ومسار متواصل من معرفة الذات وتحقيق الذات، ليس بالنسبة إلينا وحدنا - الأوروبيين والأمريكيين البيض الذكور - وإنما بالنسبة لجميع الناس، فهذا يعني أننا لم ندرك شيئاً على الإطلاق. توجد تراثات حصرية أخرى في العالم، توجد ثقافات أخرى، يوجد عباقرة آخرون².

ويخاطب إدوارد سعيد المجتمع الأمريكي الذي كان محل دراسته في كتابه الأنسنة والنقد الديمقراطي، فيقول: "لذا يبدو لي أنّ علينا البدء بتحرير أنفسنا، بوعي وتصميم، من جملة مركبة من المواقف المرتبطة لا بالمركزية الأوروبية وحسب وإنما بمسألة الهوية أيضاً، تلك التي لم يعد بالإمكان احتمالها داخل الفكر الأنسني كما كان الأمر قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها، كذلك يتعين على الإنسيين أن يستلهموا الأدب والفكر والفن في زماننا الحاضر، والاعتراف بشيء من الجزع أنّ سياسات الهوية وأنّ النظام التعليمي المؤسس على الأفكار القومية لا يزالان كامنين في صلب معظم أفعالنا، على الرغم من تغير حدود الأبحاث ومواضيعها. ثمة فجوة لا بأس بحجمها بين ما نمارسه بما نحن أنسنيون وبين ما نعرفه عن العالم الواسع³. ويؤكد إدوارد سعيد أنّ من يلقي نظرة استرجاعية على معظم تاريخ الحركة الأنسنية الأمريكية، في القرن العشرين، مضطر للقول إنها ابتليت بلون من المركزية الأوروبية، لا يمكن أن يبقى من غير مساءلة. فاقصر الدروس الجامعية على عدد قليل من الروائع الغربية المترجمة، والمبجلة إلزاماً، وتضييق الدائرة عما يتكون منه عالم الغربيين، وتجاهل تراثات إسلامية، وهندية، وصينية، وأفريقية... إلخ. ولغات تبدو خارجة عن تصنيف ما هو محترم، أو مكّرّس، كل هذه الأمور يرى إدوارد وجوب التخلص منها، أو على الأقل إخضاعها لنقد أنسني جذري⁴. فيرى سعيد الإنسانيات في الولايات المتحدة تحتاج إلى إعادة تأمل وتحريرها من المركزية الأوروبية.

¹ فخري صالح، المرجع السابق، ص 78.

² إدوارد سعيد، الأنسنة والنقد الديمقراطي، المصدر السابق، ص 46.

³ المصدر نفسه، ص 77.

⁴ خالد سعيد، المرجع السابق، ص 148.

ويؤكد إدوارد سعيد أنّ الأنسنية أيضا "هي بذل جهود المرء كافة في اللغة من أجل أن يفهم منتجات اللغة في التاريخ ويدرس لغات أخرى وتواريخ أخرى ويعيد ترجمتها ويتعاطى معها ليست الأنسنية طريقة في تدعيم وتأكيد ما قد عرفناه وأحسسناه دوما، وإنما هي وسيلة تساؤلات وإفلاق وإعادة صياغة للكثير الكثير مما يقدم لنا اليوم على أنّه يقينيات مسلّعة، معلّبة، مغلقة على النقاش، ومشقّرة على نحو غير نقدي .. غير أنّ اللغة إن هي إلا نقطة الانطلاق بالنسبة للأنسنيين .. وهي التي توفر للنزعة الأنسنية مادتها الخام أيضا، مثلما توفر للأدب أثمن فرصة. ولكن اللغة تقرر لنا مصيرنا الاجتماعي والثقافي على الرغم من طراوتها ومرونتها"¹. وهنا يبرز سعيد دور الأنسنية في اللغة التي تقوم بزيادة الوعي والتفسير وإعادة فرز لكل ما يقدم على أنه يقيني وغير قابل للنقد وكما هي مجال لاستخدام قدراتنا اللغوية.

يصرّ إدوارد سعيد على أهمية النقد الإنساني باعتبار العصر الذي نعيش فيه، الذي هو عصر الإنسان، بتعبيره بقوله: "يمثل التغير قوام التاريخ الإنساني، كما أنّ التاريخ الإنساني الذي يصنعه الفعل الإنساني ويفهم استنادا إلى هذه الفعالية هو الأرضية التي تقوم عليها الإنسانيات"². وهنا يبرر سعيد على أنّ النزعة الإنسانية نظرية صالحة للاعتناق، في بداية قرن يشهد حروبا عرقية، وصداما مزيف بين الثقافات³.

من خلال نقد إدوارد سعيد للخطاب الاستشراقي حاول تقويض النظرية الغربية الأوروبية اللإنسانية، ومقاومتها عن طريق نزعة إنسانية بآليات مستفادّة من الغرب أنفسهم، والدعوة إلى إعادة النظر في التاريخ الإنساني، لأنه من صنع الإنسان نفسه، وإلى مدّ جسور التواصل بين الحضارات والشعوب وفق رؤية إنسانية.

¹ إدوارد سعيد، الأنسنية والنقد الديمقراطي، المصدر السابق، ص 48، 49.

² فخري صالح، المرجع السابق، ص 79.

³ هالة ماضي، المرجع السابق، سعيد ص 85.

المطلب الثالث: القراءة الطباقية

تعد القراءة الطباقية من أهم أنواع المناهج التي تميز بها إدوارد سعيد في نقده للاستشراق، والمركزية الغربية، والطباقية قراءة مستوحاة من مفهوم يعود إلى موسيقى كنسية غربية في القرون الوسطى عرفت باسم لاتيني يعني (النغمة مقابل النغمة) أو (النغمة ضد النغمة)، وصارت تعترف اليوم بالطابق الموسيقي أو تصاحب الألحان المتقابلة¹.

أي أن النص طبقات مثل الموسيقى والقراءة الطباقية تمكننا من الولوج إلى أعماق هذه الطبقات الخفية للوصول إلى المعاني.

الموسيقى الطباقية هي كما يقول سعيد: "الاستعمال المتزامن للحنين (ميلودي) أو أكثر لإنتاج المعنى الموسيقي، بما يسمح بالقول عن أحد الألحان إنه النقطة المضادة لـ، أو في حالة تضاد مع، لحن آخر. وهكذا فإن التضاد المزدوج هو أن يكون لحنان، أحدهما فوق الآخر، قابلين لتبادل موقعيهما، ومثل ذلك التضاد الثلاثي والرباعي... إلخ"². فاستمد سعيد القراءة الطباقية من الموسيقى.

لقد صاغ إدوارد سعيد مصطلح القراءة الطباقية لوصف منهج في قراءة النصوص الأدب الإنجليزي بحيث تكشف المعنى الضمني العميق في الإمبريالية، والعملية الكولونيالية ويشير المصطلح المقترض من الموسيقى إلى تجاوبية تطرح طباقا للنص، وبهذا تعطي إمكانية لبروز التضمينات الكولونيالية التي قد تظل من دون ذلك تضمينات مُستخفية³.

ويوضح سعيد مقصوده بالقراءة الطباقية ويزيل اللبس عنها بمثال فيقول: "بمصطلحات عملية، تعني "القراءة الطباقية كما أسميتها قراءة النص بفهم لما هو مشبوك حين يظهر مؤلف ما، مثلا، أنّ مزرعة استعمارية لقصب السكر تعانين بوصفها هامة بالنسبة لعملية الحفاظ على أسلوب معين للحياة في انكلترا. وعلاوة، فإن هذه، مثل جميع النصوص الأدبية، ليست مقيدة ببداياتها ونهاياتها

¹ عبد الله البياري: (إدوارد سعيد: الثقافة وطن ومقاومة)، بحث منشور على شبكة الأنترنت <https://echajara.wordpress.com> تاريخ الاطلاع: 2022/04/09م

² إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، المصدر السابق، ص 20.

³ بيل أشكروفت وآخرون، المرجع السابق، ص 119.

التاريخية الشكلية. إنّ الإحالات إلى أستراليا في "دايفيد كوبرفيلد" أو إلى الهند في "جين إير" لتصاغ لأنها يمكن أن تصاغ، لأنّ قوة بريطانيا (لا وهم الروائي فقط) جعلت الإحالة العابرة إلى هذه المصادر الضخمة ممكنة؛ غير أنّ الدروس الأخرى الأبعد من ذلك لا تقل سلامة وصدقا: وهي أنّ هذه المستعمرات قد تم تحريرها لاحقا من الحكم المباشر وغير المباشر، وهي عملية بدأت وانتشرت حين كان البريطانيون (أو الفرنسيون أو البرتغاليون أو الألمان) ما يزالون هناك، مع أنّها، كجزء من السعي لقمع القوميات الأصلانية، لم تلق إلا اهتماما عابرا بها من آن لآخر. والنقطة (التي أثّرها) هي أنّ القراءة الطباقية ينبغي أن تدخل في حسابها كلتا العمليتين: العملية الامبريالية، وعملية المقاومة لها، ويمكن أن يتم ذلك بتوسيع قراننا للنصوص لتشمل ما تم ذات يوم إقصاؤه بالقوة (وهو في (رواية) الغريب، مثلا التاريخ السابق بأسره لاستعمار فرنسا وتدميرها للدولة الجزائرية، ثم الظهور اللاحق لجزائر مستقلة (اتخذ منها "كامو" موقف المعارض)¹. فالقراءة الطباقية هي مقاومة ثقافية للإمبريالية وإعادة قراءة وتأويل آخر في ثنايا الثقافة والرواية التي يسعى الغرب لتمريرها وفق مصالحه الإمبريالية والاستعمارية ولقد ضرب إدوارد سعيد برواية الغريب "لكامو" مثلا.

لم يكن لسعيد سلاح لمواجهة الأرشيف الضخم لنصوص الاستشراق سوى فكرة القراءة الطباقية، فحين تقرأ آلاف الصفحات من كتابات سعيد فإنك ستجد معظمها خضع لآليات التحليل الطباقية إيمانا منه وتيقنا من وجود علاقة بين الثقافة التي أنتجت تلك النصوص والامبريالية، بمعنى آخر التحليل الدقيق للاستراتيجيات التي استخدمها الامبريالية في إخضاع الشعوب الواقعة خارج نطاقها، وكذلك للمعارضة والمقاومة².

وعليه، فسعيد يدعو إلى تعطيل آليات اشتغال الخطاب الإمبريالي من خلال المقاومة الثقافية له، وذلك بإعادة قراءة الروايات الغربية وكشف ما تتضمنه من وحدات وعلامات ثقافية امبريالية التي تحاول أن تترسخ لدى السكان الأصليين، بتجاوز الجمالية الأدبية في النصوص إلى كشف المخبوء،

¹ إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، المصدر السابق، ص 135.

² جميلة بوعرة: القراءة الطباقية عند إدوارد سعيد كتاب "الثقافة والإمبريالية أنموذجا"، مذكرة ماستر في الأدب عربي، غير منشورة، جامعة محمد الصديق بن يحي تاسوست، جيجل: كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، 2017، 2018م، ص

فالقراءة الطباقية هي استراتيجية في القراءة، تقوم على قراءة الرواية الأوروبية في علاقتها بالروايات المضادة لها، وقد طورت هذه القراءة أدواتها التأويلية انطلاقاً من تحرير القراءة نفسها من التمرکزات التأويلية التي أنتجها النقد الأوروبي لقرون¹.

وتقوم القراءة الطباقية عند إدوارد سعيد على التمييز بين ثلاثة أنواع من القراء؛ قراء منتمون إلى المركزية الغربية، وقراء منتمون إلى السكان الأصليين، وثالثاً جمهور مفترض في مخيطة الكاتب عند كتابة منتجه الثقافي². فيهدف سعيد من خلالها إلى إفساح المجال لجميع الآراء والأنواع التي تنطوي عليها الثقافة بما فيها النصوص الأدبية التي يجب أن تبقى حكراً على الغربي المتمركز حول نفسه المهتمش لغيره.

ويضرب سعيد، مثلاً آخر، تدليلاً على ما يذهب إليه، بما فعله الغرب، وارتكبه من جرائم مهولة في بلاد كثيرة، في اليابان، والهند، والصين، والفلبين، والدول العربية، والإسلامية، حيث أيد الملايين. في فيتنام، وحدها، خمسة ملايين، في الجزائر مليونان. ويشير إدوارد سعيد، بالدراسة والتحليل، إلى الروايات العالمية التي تناولت موضوع العلاقة بين الشرق والغرب، ليبين من أحداثها حقيقة هذه النظرة الاستعمارية، والكيل بمكيالين³. ومن هنا، يدرس سعيد ويقدم لقرائه ما تركه الاستعمار على جسد ثقافات البلدان المستعمرة، والبحث عن طريق ثالث، تتغير فيه النظرة الثنائية إلى ثقافة الآخر وثقافة الأنا⁴.

فالقراءة الطباقية تعد بحث في رؤى التاريخ الإنساني يقوم بإزالة الحواجز بين الثقافات وكشف الخطاب الغربي الذي يهمش الآخر المقموع والمنسي. وتقوم أيضاً على أسس نقدية تكشف المخبوء الثقافي المضمر من طرف المركزية الغربية لخدمة مصالحها بخدمة استشراقية مستغلة للمعرفة والسلطة.

¹ أحمد عارف، المرجع السابق، ص 211.

² يادكار لطيف الشهرزوري، (النقد ما بعد الاستعماري: مقارنة ثقافية في كتاب الثقافة والامبريالية لإدوارد سعيد)، مجلة الأدب العربي، العراق: جامعة صلاح الدين، أربيل، السنة الثانية عشر، العدد 3، خريف 2020م، ص 21.

³ خالد سعيد، المرجع السابق، ص 116.

⁴ فخري صالح، أزمات الدراسات العربية المقارنة، مجلة الفكر والفن المعاصر القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، العدد 160، مارس 1996م، ص 119.

الفصل الرابع

نقد الاستشراق بين

مالك بين نبي وإدوارد

سعيد

المبحث الأول: الدافع والمستجد والأثر في نقد الاستشراق عند مالك بن نبي وإدوارد سعيد

المطلب الأول: دوافع نقدهما للاستشراق

1- مالك بن نبي:

إنّ الدارس للاستعمار وللإستشراق، والعلاقة بينهما، سيجد حتمًا أن من الوسائل التي يستعملها الاستعمار هي "الإستشراق"، فالمستعمر يستعمل المستشرقين كجهاز للتمهيد للاستعمار الفكري وطمس هويّة الدولة المستعمرة، ودججها في الدولة المستعمرة، فهذا العدد الهائل من المستشرقين في عديد من بلاد العالم الذين سخروا كل جهودهم، بل أفنوا أعمارهم في دراسة وتحليل حضارة غريبة عنهم، بالتعاون مع الدوائر الاستعمارية التي تغدق عليهم الأموال وتمدهم بكل الإمكانيات، ما هي إلا محاولة لإخضاع البلاد الإسلامية لهيمنتهم وسلطتهم وسلطانهم. هذا الذي دفع وأدى بمالك بن نبي إلى نقد الإستشراق.

جاء مالك بن نبي إلى الوجود في زمن كان الاستعمار الفرنسي قد بسط نفوذه على أرض الجزائر الطيبية، فشبّ الطفل في وطن مسلوب، عاش فيه كلّ تطورات المجتمع، وتحولاته بجوارحه، من خلال مشاهداته اليومية، فانطبع في ذهنه ذلك الصراع القائم بين سلطة استعمارية تحاول بسط نفوذها الفكري، ومجتمع ما يزال متشبثًا بموروثه الديني والثقافي، فولّد ذلك شعورًا لدى الشاب يدعو للتفكير في تخليص هذا المجتمع من هيمنة الاستعمار.

فالمتتبع لسيرة مالك بن نبي الذاتية، ولعديد مؤلفاته يتبدى له تأثير الرجل بحالة المجتمع، ووعيه بدوره كمتقف مسلم في هذا المجتمع، ولذلك يمكن أن نحصر دوافع مالك بن نبي في نقده للاستشراق في جانبين: جانب ذاتي يتمثل في شخصيته، وتكوينه الفكري الذي دفعه للانكباب على مسألة البناء الحضاري للأمة الإسلامية، وجانب خارجي مهيمن نتج عنه ذلك الواقع للعالم الإسلامي، وما يعاينه من تخلف.

أ/ الجانب الذاتي: يتمثل الجانب الذاتي للمفكر في شخصيته كإنسان مليء بالعواطف، والأحاسيس تجاه القضايا الإنسانية من جهة. وفي فكره، وما ساهم في صقل هذا الفكر من ثقافة ومطالعة ونتاج التأثر بها من جهة أخرى، فكان يُطالع مجلة الشهاب التي كان يصدرها العلامة عبد الحميد بن باديس، ورغم الصعوبات والعراقيل التي كانت تفرضها سلطات الاستعمار على المطبوعات العربية استطاع مالك بن نبي أن يطلع على (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق) لأحمد رضا و(رسالة التوحيد) لمحمد عبده و(طبائع الاستبداد) لعبد الرحمان الكواكي ومقدمة ابن خلدون، وقرأ مالك بن نبي لأدباء فرنسا مثل: "لامارتين" ول"أمريكي" "جون ديوي" كتابه (كيف تفكر) واطلع على كتابات المستشرقين ككتاب (الإسلام بين الحوت والدب) "الأوجين يونغ"، وكتاب (تحت ظلال الإسلام الدافئة) لإيزابيل إبرهات¹.

لقد ولد مالك بن نبي في عصر سمع فيه قصص الاحتلال الفرنسي المرعبة، وعاش مأساة بلده؛ حيث الاستعمار يخطط لشلّ فاعليته، وتحويله إلى فريسة يسهل التهامها، فقد مارس الاستعمار كلّ ما من شأنه أن يطمس هوية هذا المجتمع، وهذا الوطن، وقد عاشها ابن نبي ككلّ الجزائريين، يقول الأستاذ محمد المبارك في تقديمه لكتاب (وجهة العالم الإسلامي): "إن المؤلف نفسه عانى هذه التجربة فكرياً ونفسياً لأشدّ ما يعانها إنسان مثقّف مرهف الشعور والحس"². لقد عاش مالك بن نبي هذه المأساة يوماً بيوم في المدرسة الفرنسية، وفي تبسة وفي قسنطينة، ورأى كيف بدأ المجتمع يتحوّل عن فطرته، وكيف صارت السيادة للصعاليك، بمساعدة الإدارة الفرنسية، وكيف بدأت ملكية الأراضي تنتقل من أبناء البلد إلى المستعمر بواسطة اليهود، كما عاش في فرنسا مأساة الجالية الجزائرية، أو كما يسموهم أبناء المستعمرات، من الأمية، والجهل، وشظف العيش، والنظرة الدونية للمجتمع الأوروبي إليهم، هذه التجربة المرّة، وهذه الشّهادة على الحالة الاستعمارية أعطت مالكا القدرة الفائقة على تحليل نفسية المستعمر، والمستعمر، واكتشاف أساليب الاستعمار الماكرة الخبيثة "نراه يستغل جهل الجماهير، لينشئ حول الفكرة منطقة فراغ وصمت لعزلها عن المجتمع"³.

¹ محمد العبد، مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاح، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 2006م، ص 52.

² مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، المصدر السابق، ص 09.

³ مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1960م، ص 16.

وبالرغم من أنّ مالك بن نبي لم يكن من حفظة القرآن الكريم والحديث الشريف إلاّ أنّه كان على دراية واسعة بالتاريخ الإسلامي، وذا قدرة فائقة على فهم الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة خاصّة ما تعلق منها بالتغيير.

إنّ مالك بن نبي يجمع في شخصيته خطّين، فهو من جهة شخصية عاطفية يهيم بالتجريد، وأحلام الفلاسفة إذ يقول عن نفسه: "فأنا شديد التأثر بالحدث، وأتلقى صدمته بكل مجامعي وبانفعالية تستطيع أن تنتزع مني دموع الحزن حين يثير الحدث الجبور من حيث المبدأ"¹. فهو هنا يفصح عن عاطفة جيّاشة تحركها الأحداث.

ومن جهة أخرى نجد في مالك بن نبي شخصية علمية صارمة، لها معرفة دقيقة وارتباط شديد بواقع الأمة الإسلامية، ومن خلال اطلاعه الواسع على الثقافة الغربية يطرح المقارنات، والتحليلات، ويهتم بكلّ جزئية، وبكلّ حادثة يبدأ عملية التحليل والتركيب.

ب/ الجانب الموضوعي: يقول مالك بن نبي في تحليله للاستعمار: "من الواضح أنّ الاستعمار في صورته هذه يُعدّ عنصراً جوهرياً في فوضى العالم الإسلامي، فهو لا يدخل فقط بمقتضى العلاقة المباشرة بين الحاكم والمحكوم، بين المستعمر والمستعمّر، وإنّما يتدخّل في صورة خفية في علاقات المسلمين بعضهم ببعض"².

فمن أهمّ الدوافع التي دفعت بمالك بن نبي إلى نقد الاستشراق هي فوضى العالم الإسلامي التي أحدثها الاستشراق، ولا يخفى علينا كما رأينا أنّ الاستعمار يستعمل الاستشراق وسيلة لطمس الهوية، وجهاز لإحداث الفوضى في دول العالم الإسلامي، وجعلها تعيش على هامش الأحداث.

كذلك من بين الدوافع التي نراها قد دفعت بمالك بن نبي لنقد للاستشراق هي اتساع مجالات اهتمامات الاستشراق، وتأثيراته فبالإضافة إلى الأعداد الكبيرة من الطلاب العرب والمسلمين الذين درسوا، ويدرسون في الجامعات الغربية، انتشرت في عالمنا الإسلامي المدارس الأجنبية من الابتدائية حتى الجامعة بل أصبحت الجامعات مثل الدكاكين، أو حوانيت البقالات وبخاصة في منطقة

¹ مالك بن نبي، مذكرات شاهد على القرن، المصدر السابق، ص 137.

² مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مكتبة الأسد، دمشق، سوريا، ط1، 2012م، ص 109.

الخليج العربي الذي تكاد لغته العربية أن تندثر. واستمرت البعثات ولم يتوقفوا عند ذلك فقد ازدادت مؤتمراتهم، وورش العمل والنشاطات الاستشراقية التي لا حدود لها¹.

ضف إلى ذلك واقع الوطن الإسلامي اليوم الذي يقبع في مؤخرة الترتيب من حيث التقدم العلمي والتكنولوجي، رغم ما يزخر به من طاقات بشرية، ومادية بإمكانها أن تجعل منه في مقدمة الركب، لكن غياب المشاريع والأهداف والتخطيط، والتي يسميها مالك بن نبي "الأفكار" حالت دون وصوله إلى التطور، وبقي تابعاً لغيره مستوردًا ما يوجد به الغرب، وفيه الكثير من عوامل الهدم، من منطلق أنّ الخضم لا يعطيك عوامل التفوق، وعليك أن تصنع تفوقك بيدك.

2- إدوارد سعيد:

لقد كانت هناك مجموعة من الدوافع جعلت من إدوارد سعيد يتوجه بهمة لنقد الاستشراق وجعلته يدخل مرحلة جديدة، وحاسمة في حياته، وفي مساره الفكري، والنقدي، وقد تكون هناك أحداث عالمية كبيرة، لعبت دوراً أساسياً في ذلك.

أ/ الجانب الذاتي: من الدوافع الذاتية نجد حرب الخامس من جوان 1967م، التي هزمت فيها إسرائيل الجيوش العربية، واحتلت كلا من سيناء، والجولان، والقدس. لقد جعلت حرب 1967م، وكيفية استقبالها في الولايات المتحدة الأمريكية، سعيداً يواجه تناقض موقعه، فلم يعد بمقدوره امتلاك هويتين، وبدأت التجربة تنعكس في كل مكان من أعماله. ودلالة هذا التحول في حياة إدوارد سعيد تكمن في حقيقة أنه للمرة الأولى، بني نفسه من جهة كونه فلسطينياً، لينطق بوعي بالإحساس بالأصل الثقافي الذي كبحه منذ طفولته، وانتقل بمعزل عنه إلى حياته المهنية².

ب/ الجانب الموضوعي: ومن الأحداث والمحطات المهمة في تاريخ إدوارد ثورة ربيع 1968م الطلابية، التي هزت جل العواصم الغربية الكبيرة، معلنة الحرب على البورجوازية، والرأسمالية، والإمبريالية. ومن بين الأحداث الكبيرة الأخرى، يمكن أن نذكر غزو ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي لما كان يسمى بتشيكوسلوفاكيا، والذي أدى إلى إقصاء الاشتراكيين الليبراليين، الرافضين لهيمنة

¹ مازن مطبقاني، المغرب العربي بين الاستعمار والاستشراق، دار الريشة للنشر والتوزيع، (د.ط)، 1989م، ص 122.

² بيل أشكروفت وبال اهلواليا، المرجع السابق، ص 11، 12.

موسكو، عن قيادة الحزب الشيكوسلوفياكي. كل هذه الأحداث ساعد إدوارد سعيد على بلورة منهج نقدي جديد، لن يلبث أن يجعل منه أحد ألمع المفكرين في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي العالم، دافعاً به إلى الحفر في هويته الفلسطينية العربية، التي باتت مهددة بالانقراض، والتلاشي، بسبب المحجرات، والانشرحات الثقافية، واللغوية¹.

أما عن الدافع الأكبر فقد كان تزايدت الحملات العدائية الموجهة ضد العرب في الإعلام الأوروبي، والأمريكي في الربع الأخير من القرن العشرين بسبب أن المنطقة أهم مصدر عالمي للطاقة، ولكون المنطقة بؤرة متأججة تهدد السلم العالمي بسبب الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، وأهدافه التوسعية الدائمة ما دفع إدوارد سعيد إلى التصدي لتلك الحملات المغرضة المسعورة "لقد كان ما ينشر في الإعلام الأمريكي عن الشرق الأوسط بعد عام 1973م هو الذي دفعني إلى فكرة كتاب الاستشراق كما جاءت الحرب الأهلية اللبنانية عام 1974م لتزيد تصميمي على ذلك"².

المطلب الثاني: الأفكار الجديدة في نقدهما للاستشراق.

1- مالك بن نبي:

الجديد الذي أضافه مالك بن نبي في نقده للاستشراق تنبّهه إلى طبقة المادحين من المستشرقين، والمدافعين عن الإسلام والمسلمين، والعرب والحضارة الإسلامية، وتنبّهه إلى دهائهم وحيلهم، وقلة القلة من قد يتنبّه لهذا، وذلك لأنهم لم يلقوا أي مقاومة وكانت لهم آثار معتبرة مكنتهم من مخادعة نسقنا الدفاعي. فهو يحذر منها تحذيراً كبيراً، ويعتبرهم أخطر من الناقدين وسبب ذلك أنهم يدخلون أفكارهم المسمومة ضمن مديحهم، ويتقبلها المسلمون دون إدراك أو وعي حيث "نجد للمستشرقين المادحين الأثر الملموس، الذي يمكننا تصوره، بقدر ما ندرك أنه لم يجد في نفوسنا أي استعداد لرد الفعل، حيث لم يكن هناك في بادئ الأمر مبرر للدفاع الذي فقد جدواه وكأنما أصبح

¹ خالد سعيد، المرجع السابق، ص 38.

² إدوارد سعيد، خيانة المثقفين النصوص الأخيرة، المصدر السابق، ص 15.

جهازه معطلاً لهذا السبب في نفوسنا"¹، فمدح بعض المستشرقين لنا قد كان له تأثير تحديري علينا مما جعلنا نغض عيوننا مستسلمين.

لقد استخلص مالك بن نبي أنّ هناك مرّكب نقص اعترى الضمير الإسلامي أمام ظاهرة الحضارة الغربية وأمام رياح الاستشراق، وهذا الأثر وإن كان مدحاً ودفاعاً عن الإسلام والمسلمين والعرب، إلا أنه انعكس علينا بطريقة غير محمودة حسب اعتقاده "فلكي نتصور هذا الأثر على صورته الحقيقية في مجتمعنا الإسلامي، يجب أن نعيد هذا النوع من الاستشراق إلى مصادره التاريخية"².

ويعتقد مالك بن نبي أن المدح والتمجيد لماضيها هما من الوسائل التي شغلتنا عن أهم مشكلاتنا، وهو الأمر الذي آل بنا إلى الاهتمام بمشاكل وهمية وحلول وهمية، وفي أحسن الأحوال نقع في صراع داخلي بين الوافد والمحلي، وبين الأصول والفروع، فيتقدم الآخر أين نتأخر نحن.

ومما هو واضح أن مدار البحث في المشروع الفكري لمالك بن نبي هو الانشغال بالموقع المتخلف للعالم الإسلامي على سلم التطور التاريخي للشعوب، ومحاولة النفاذ إلى عمق مشكلات هذا العالم الحضارية، ورصد السبب والشروط الضرورية لرقيه وازدهاره. وعلى هذا فإذا كانت ظاهرتنا "الاستعمار" و"القابلية له" هما الأزمّة التي صدرت عنها جميع مشكلاتنا ومآسينا، فإن أسباب نهضتنا لا تتمثل في الاكتفاء بمطالبة المستعمر بالكفّ عن استعمارنا، ولا في زيادة استيراد أفكاره ومنتجاته المادية وتكديسها، وإنما الأمل معقود على شِفائنا من مرض "القابلية للاستعمار". ذلك أنّ ارتفاع البشر إلى مستوى الحضارة وتصفية محيطهم من رواسبه الفاسدة يقتضي منهم - بموجب السنن الكونية - تغيير ما بأنفسهم أولاً، وهذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾³. وحتى يتحقق هذا، لا بد من توفر الشروط النفسية والموضوعية المنتجة للإرادة والأفكار الدافعة نحو الفعل الحضاري المبدع الجامع لعناصره المعروفة:

¹ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 07.

² المصدر نفسه، ص 08.

³ سورة الرعد، 11.

(الإنسان) و(التراب) و(الوقت). يقول مالك بن نبي: "والواقع أن الفكر السياسي الحديث في العالم الإسلامي هو في ذاته عنصر متنافر، فهو اقتباس لا يتفق وحالة ذلك العالم، والمسلمون في هذا الميدان أو في غيره من الميادين لم ينقبوا عن وسائل لنهضتهم، بل اكتفوا بحاجات قلدوا فيها غيرهم، وأشكال جوفاء إلا من الهواء، بينما ليست حاجتنا أن نجتمع العناصر لنكوّن منها تلفيقاً، وإنما أن نوجد بواسطة منهج يقوم على التحليل، العناصر الأساسية التي تسهم في خلق (تركيب) حضاري قائم على: الإنسان والتراب والوقت"¹.

"علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي"²، ويضيف "إن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية، لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه، ولن يمكن لمجتمع في عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج"³.

2- إدوارد سعيد:

لقد نُقد الاستشراق في بداياته من طرف رجال الدين الذين ربطوا الاستشراق بمحاولة تشويه الدين وإثارة الشبهات، غير أنّ المرحلة التي اتسمت بالنضج في نقدها للخطاب الاستشراقي كانت مع المفكر والناقد إدوارد سعيد فكان الجديد هو المنهج الذي نظر من خلاله إلى الاستشراق واللغة ذات المفردات والصياغات المراوغة التي يستصحبها ذلك المنهج. فقد وظف سعيد مفهوم (الخطاب) عند الفيلسوف البنيوي ميشيل فوكو⁴. يقول إدوارد سعيد: "لقد وجدت استخدام مفهوم ميشيل فوكو لتحديد الخطاب ذا فائدة لتحديد هوية الاستشراق. ما أطرحه هنا هو أننا ما لم نكتنه الاستشراق بوصفه خطاباً فلن يكون في وسعنا أبداً أن نفهم هذا الحقل المنظم تنظيمياً عالياً والذي

¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، المصدر السابق، ص 97.

² مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 48.

³ المصدر نفسه، ص 48.

⁴ عبد المنعم عجب الغيا: (الاستشراق: في نقد اطروحة ادوارد سعيد)، بحث منشور على شبكة الأنترنت

(<https://sudanile.com>)، تاريخ الاطلاع: 2022/05/06م

استطاعت الثقافة الغربية من خلاله أن تتدبر الشرق بل حتى أن تنتجه سياسيا واجتماعيا وعسكريا وعقائديا وعلميا وتخيليا في مرحلة ما بعد عصر التنوير¹.

بالتالي اختلفت نظرة سعيد إلى مفهوم الاستشراق عن باقي المهتمين به، حيث سعى إلى تجاوز النظرة الكلاسيكية التي جعلت من المستشرقين كمفكرين يهتمون بكل ما هو شرقي وفق منهج فيلولوجي، فقد انتبه سعيد إلى الخطاب المتواري وراء النصوص الاستشراقية فعمل على فضحها وكشف النقاب عن الرسائل الاستعمارية، الاستعمارية، الامبريالية المبتوثة في هذه الأخيرة، فتعامل سعيد مع النص الاستشراقي على أنه خطاب (Discours) منتج لمعرفة يسعى من خلالها إلى التحالف مع المؤسسة الإمبراطورية، التي تمثل السلطة المغذية للفكر الاستشراقي حيث تستفيد من مخرجاته في فهم واقع (المتروبول)² وذلك بهدف تسهيل عملية السيطرة الاستعمارية والإمبريالية في تلك الرقع الجغرافيا الشرقية³. لذلك اعتبر إدوارد سعيد الاستشراق أسلوب غربي هدفه الهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه.

كذلك استخدمه النقد الإنساني وتوفير فضاء رحب للحوار والتحليل الموضوعي والتفكير العميق بدلا من الأحكام الاعتبارية المسبقة، وعدم الاعتراف بالآخر، وإصرار إدوارد سعيد على أن يبحث الاستشراق ضمن سياق تاريخي، وواقع اقتصادي واجتماعي، مثل قضايا النضال ضد الحرية والتميز العنصري والاحتلال والدفاع عن المساواة والمشاركة والاعتراف المتبادل، وتطبيق نفس المعايير الأخلاقية على الذات والآخر⁴.

¹ إدوارد سعيد، الاستشراق والمفاهيم الغربية، المصدر السابق، ص 46.

² المتروبول: مصطلح يستخدم بشكل ثنائي في الخطاب الكولونيالي للإشارة إلى (المركز) في علاقته بالهامش الكولونيالي، وقد ينسب الأمر إلى هذا المصطلح في العربية فيقال (متروبولي) ويترجمونه (حواضري metropolitan) وفي التاريخ اليوناني كانت (الحاضرة metropolis) هي الدولة الأم بالنسبة للمستعمرة، سجل أول استخدام محدد للمصطلح للإشارة إلى الموقف الكولونيالي الحديث، والذي فيه (حواضري / متروبولي) تعني ينتمي إلى أو يكون الدولة الأم. انظر سمير الشيخ، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2015م، ص 267.

³ إخلاف بن ايديري، موقع إدوارد سعيد في الدراسات ما بعد الكولونيالية ودوره في تفعيل الأمن الثقافي، المجلة الجزائرية للأمن الإنساني، الجزائر: جامعة عبد الرحمان ميرة، بجاية، المجلد 7، السنة 7، جانفي 2022م، العدد 01، ص 57.

⁴ إدوارد سعيد، خيانة المثقفين، المصدر السابق، ص 15، 16.

ولقد استعمل إدوارد سعيد في نقد الاستشراق نفس السلاح الذي استعمله المستشرقون حيث خاطب الغرب بلغته وبمنهج العلم الحديث وفي عقر داره، يقول سعيد: "أنا شرقي يرد كتابة على المستشرقين الذين ازدهروا لفترة طويلة بسبب صمتنا. أكتب لهم، من خلال تفكيك بنية مادتهم العلمية، من خلال الكشف عن تحيزها الماورائي تاريخي، المؤسساتي، والإيديولوجي والمعادي للتحريية. أخيراً، أشعر أنني أكتب لأبناء وطني وزملائي حول أمور ذات اهتمام مشترك"¹.

جمع إدوارد سعيد في نقده للاستشراق وتفكيكه بين الخطابين الكولونياليين القديم المتمثل في بريطانيا وفرنسا) والجديد (الأمريكي) وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية وتوسعها الامبريالي في مناطق مختلفة من (العالم الثالث)، وخصوصاً (الشرق الأوسط). لذا رأى عدد من الدارسين في مجال دراسات ما بعد الكولونيالية أن كتاب (الاستشراق)، ليس كتابا يدرس الاستشراق بطريقة نقدية لما قدمه في مجال دراسة الشرق من خلال تصنيف عدد المستشرقين، أو ما قدموه في هذا المجال، بل ركز "سعيد" فيه على الأهداف السياسية المهيمنة على هذا الخطاب وتوظيف مفاهيم معرفية وثقافية من أجل تحويل الشرق من صورته الواقعية إلى صورة أخرى يريد الغرب إيجادها للشرق المنافس ثقافياً ومعرفياً منذ قرون².

كذلك إدخال إدوارد سعيد العنصر السياسي في نقده الذي كان غائباً في كثير من الأحيان، وإذا وُجد فقد كان هامشياً يرتد في نهاية الأمر إلى خدمة الهدف الديني. وهكذا فإن الموجة الحالية في الهجوم على الاستشراق، التي كان أهم معالمها كتاب أحرز شهرة واسعة هو كتاب إدوارد سعيد، ليست جديدة في العالم العربي على الإطلاق. ولكن الجديد حقا هو أن الطابع السياسي-الحضاري قد أصبح المحور الأساسي لهذا النقد الجديد. أما الجانب الديني فقد اختفى أو توارى إلى حد لم يعد يُمثّل معه إلا واحدا فقط من عناصر هدف سياسي حضاري أوسع مدى بكثير، أصبح الآن يُنسب إلى الاستشراق، هو هدف مساعدة العالم الغربي في السيطرة على الشرق، بأوسع معاني هذه الكلمة. وهكذا فإن بؤرة الاهتمام، في هذا النقد الجديد، قد انعكست. ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب؛ لأن

¹ إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، المصدر السابق، ص 62.

² محمد كريم الساعدي: (إدوارد سعيد وخطابات ما بعد الاستشراق)، بحث منشور على شبكة الأنترنت <https://portal.arid.my/ar>، تاريخ الاطلاع: 2022/04/30م.

الذين حملوا لواءه لم يكن يُتوقع منهم، بحكم تكوينهم الثقافي، أن يكونوا دعاة دينيين، وإنما هم أساساً مثقفون علمانيون، بل إنَّ أهمهم مثل أنور عبد الملك وإدوارد سعيد، مسيحيون¹. فكون إدوارد سعيد مسيحي ينقد الاستشراق سابقة لأن معظم المستشرقين مسيحيين من أبناء ديانته فليس من السهل توجيه النقد إليهم.

المطلب الثالث: أثر نقدهما للاستشراق على الساحة الفكرية

1- مالك بن نبي:

عاش مالك بن نبي رحمه الله في قلب الاستشراق الأوروبي في العاصمة الفرنسية، عاش ثلاثين سنة أمضى وقتاً قصيراً يدرس الكهرباء والعلوم، بينما أمضى أكثر وقته يدرس الغرب وتفاعل معه ماضياً وحاضراً واستشرف المستقبل، وأدرك بن نبي الاستشراق بعمق واكتشف أساليبه وحيله وممارساته.

ولاشك أن نقد مالك بن نبي للاستشراق كان له الأثر البالغ في الكثير من الباحثين والمهتمين بالدراسات الاستشراقية، سواء منهم المؤيد والموافق، أو المعارض والمخالف، من ذلك:

1/ عندما ذكر مالك بن نبي موقفه من الاستشراق وسلبيته بالقول: "وبالتالي يتبين لنا أن الإنتاج الاستشراقي بكلا نوعيه، كان شرّاً على المجتمع الإسلامي، لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديح والإطراء التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا، أو في صورة التنفيذ والإقلال من شأننا بحيث صيرتنا حماة الضمير في مجتمع منهار"²، فقد أدرك هذه الصورة الباحث حيدر حب الله حين كتب يقول: "بل بلغ الأمر حد اعتقاد مفكر كبير من أمثال مالك بن نبي أن الاستشراق قام بمؤامراته عن طريق تبجيل المسلمين أكثر أو يرى في تقيظهم للفكر والتاريخ الإسلامي سماً في المسلمين كما أثاره مالك بن نبي"³.

¹ فؤاد زكريا، المرجع السابق، ص 8.

² المرجع نفسه، ص 25.

³ حيدر حب الله: (الاستشراق وتاريخية التفسير القرآن)، بحث منشور على شبكة الأنترنت، (www.nosos.net)، تاريخ الاطلاع: 2022/04/25م.

2/ ويتفق معه محمود شاكر في ذلك حين يصف المستشرقين بـ: "حملة هموم الشمال المسيحي" ويحملهم من مسؤولية كبيرة في التأثير في حياتنا الثقافية والسياسية والاقتصادية ووصفهم بقوله: "وهم أهم وأعظم طبقة تمحضت عنها اليقظة الأوروبية لأنهم جند المسيحية الشمالية، الذين وهبوا أنفسهم للجهد الأكبر"¹.

فقد ذاع صيت مالك بن نبي في نقده للاستشراق العواصم العالمية والعربية، فالتفت من حوله كوكبة من المفكرين والأساتذة الجامعيين المهتمين بفكره ونقده، منهم: عبد السلام الهراس، وأحمد عبد المقصود، وعبد الصبور شاهين، ومحمود شاكر، ورشيد بن عيسى، وعمر كامل مسقاوي، وناصر إبراهيم الصالح، وعبد الرحيم طريف، وعبد اللطيف عبادة²، والشيخ طارق بن شين. وهو أحد تلاميذ مالك بن نبي الذي كان لي الشرف أنا العبد الضعيف إبراهيم ريغي أن جلست معه لساعات وأيام في زيارة رسمية إلى مقر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين شعبة توقرت في أبريل 2022م. بالإضافة إلى أبرز المحاضرات حول الاستشراق وسلبياته والتي ألقاها في بيروت ودمشق وطرابلس والجزائر، وكذلك ما كان يكتبه في الجرائد والمجلات داخل الجزائر وخارجها، لاسيما مشاركته في ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر.

وذاع صيته عندما بدأ قادة العالم يستقبلونه تكريماً لشخصه وفكره ونقده، ومنهم الزعيم الصيني "ماوتسي تونغ"، والزعيم المصري الراحل "جمال عبد الناصر"، والراحل الجزائري "هوارى بومدين"³.

ولقد كان لنقد مالك بن نبي للاستشراق صداؤه في كتب المهتمين، وبحوث الجامعيين، نذكر منها:

1/ الساسي بن محمد الضيفاوي، الرد على الاستشراق في الفكر العربي المعاصر: "مالك بن نبي أنموذجاً"، وهو (باحث تونسي).

¹ محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1997م، ص 48.

² عبد اللطيف عبادة، المرجع السابق، ص 109.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

- 2/ فؤاد زكريا، نقد الاستشراق وأزمة الثقافة العربية المعاصرة. (أكاديمي وباحث مصري).
 - 3/ رحمون حبيبة، مالك بن نبي وقضايا عصره: "الاستعمار والاستشراق نموذجاً"، (رسالة ماستر بجامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر).
 - 4/ ياسين حسين الويسي، مالك بن نبي وموقفه من الاستشراق والمستشرقين (كتابه إنتاج المستشرقين أمودجاً)، (باحث عراقي).
 - 5/ أحمد شحيمط، الاستشراق والقابلية للاستعمار في فكر مالك بن نبي. (كاتب مغربي).
 - 6/ خالد مزاتي، موقف مالك بن نبي من إنتاج المستشرقين، نحو وعي نضوي جديد، (دكتور بجامعة أدرار، الجزائر).
 - 7/ محمد جلوب الفرحان، مالك بن نبي الحوار الإسلامي المسيحي والدراسات الاستشراقية، (فيلسوف عراقي).
 - 8/ خالد باعزب، مالك بن نبي وإنتاج المستشرقين. (كاتب يمني).
 - 9/ محمد بسناسي، الدراسة الاستشراقية بين الأمس واليوم، (جامعة ليون، فرنسا).
 - 10/ حمادية هجيرة، موقف مالك بن نبي من الاستشراق، (رسالة ماستر بجامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر).
 - 11/ مازن صلاح مطبقاتي، المغرب العربي بين الاستعمار والاستشراق، (باحث أردني).
 - 12/ مازن صلاح مطبقاتي، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي.
- كل هذه الكتب والرسائل الجامعية، إضافة إلى المقالات في الجرائد والمجلات، والملتقيات والندوات سال فيها خبرٌ كثيرٌ حول مالك بن نبي ونقده للاستشراق.

ولعلنا يمكننا القول أنّ مالك بن نبي قد يكون له الأثر فيما كان يحاوله أصحاب القرار، فقد مات مالك بن نبي رحمه الله ومصطلح "الاستشراق" يلفظ أنفاسه فقد رأى الغرب أن هذا المصطلح ينطوي على حمولات تاريخية ودلالات سلبية وأنّ هذا المصطلح لم يعد يفي بوصف الباحثين المتخصصين في العالم الإسلامي. فكان من قرارات منظمة المؤتمرات العالمية في مؤتمرها الذي عقد في باريس سنة 1973 م بأن يتم الاستغناء عن هذا المصطلح، وأن يطلق على هذه المنظمة "المؤتمرات العالمية للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا" (ICHSANA)، وعقدت المنظمة مؤتمرين تحت هذا العنوان إلى أن تم تغييره مرة ثانية إلى: "المؤتمرات العالمية للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية"، وقد

عارض هذا القرار دول الكتلة الشرقية "روسيا والدول التي كانت تدور في فلكها" ومع ذلك ففي المؤتمر الدولي الخامس والثلاثين للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية الذي عقد في "بودابست" بالبحر كان مصطلح استشراق ومستشرقين يستخدم دون أي تحفظات، مما يعني أنّ الأوروبيين الغربيين والأمريكيين هم الأكثر اعتراضاً على هذا المصطلح، ولعل هذا ليفيد المغيرة بحيث يتحدثون عن المستشرقين ليثبتوا أنهم غير ذلك بل هم مستعربون "Arabists"، أو إسلاميون "Islamists" أو باحثون في العلوم الإنسانية "Humanists"، أو متخصصون في الدراسات الإقليمية أو الاجتماعية أو الاقتصادية التي تختص ببلد معين أو منطقة جغرافية معينة¹.

لم يخصص مالك بن نبي للاستشراق سوى بحث قصير حول إنتاجهم وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ولكن لا تكاد تخلو كتاباته كلها من الاهتمام بهم وبآثارهم.

نعم نحن بحاجة ماسة لاستعادة كل ما كتبه مالك بن نبي رحمه الله خاصة في نظريته وموقفه ونقده للاستشراق، ولكننا في الوقت نفسه علينا أن نواكب خطوات الاستشراق والمستشرقين لنستوعبها، وندركها ونكون على بيّنة وحذر من مكائدهم ومراغاتهم.

2- إدوارد سعيد:

عربياً يعد إدوارد سعيد من بين المفكرين القلائل الذين ذاع صيتهم، واستطاعوا التأثير على فكر غيرهم، حيث نجد من بين الذين تأثروا بفكر إدوارد سعيد المفكر السعودي "عبد الله الغدامي" صاحب مشروع النقد الثقافي الذي نهلوا واستلهم منه، ويكمن التأثير الكبير لإدوارد سعيد على الغدامي من خلال سعيه إلى كشف المحبوء تحت الجمالي، والتعرية عن ممارسات الخطاب الإمبريالي المنتج عبر المؤسسة الثقافية. وعلى غرار "حسن حنفي" الذي نلجج هو الآخر طريق إدوارد سعيد في حقل الكتابة الاستشراقية، ولكن من منطلق الرد على الغرب من خلال علم الاستغراب الذي يهتم معالجة ودراسة الفكر الغربي. كما نجد الكاتب السوداني "طيب صالح" هو الآخر قد تأثر بأفكار إدوارد سعيد، ويظهر هذا من خلال روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" التي تعنى بحياة الشرقي في

¹ مازن مطبقاني، المغرب العربي بين الاستعمار والاستشراق، المرجع السابق، ص 133، 134.

موطن الغربي، وبالتالي التعرف على العلاقات التي ينسجها معه من منطلق التقارب والاحتكاك به عن قرب¹.

دعا إدوارد سعيد الشرق في كتابه "الاستشراق" إلى تمثيل نفسه والإفصاح عن ذاته، وإلى تحرر الناقد من الاعتقاد بقدسية النظرية الغربية. ولقد أقدم عدد من النقاد العرب، كجابر عصفور (كاتب ومفكر وباحث وأكاديمي مصري)، ومحمد برادة (روائي وناقد مغربي)، وبعني العيد (كاتبة وناقدة أدبية لبنانية)، وصبحي الحديدي (ناقد ومترجم سوري)، وفخري صالح (باحث وكاتب أردني)، على سبيل المثال لا الحصر، على تبني دعوته، وجأهروا بالحاجة إلى تحرير الخطاب النقدي العربي من قبضة النظرية الغربية وتكلف عناء التقليد. فقد أدركوا أنه لم يعد من المجدي استيراد النظريات الأدبية الغربية، أو تطبيقها بصورة عمياء على الظواهر الأدبية، أو النصوص العربية².

عالماً ترى الناقدة والباحثة الهندية "غاياتري سبيفاك" وهي أحد رواد النقد الثقافي، أنّ الجهد الريادي الفردي لإدوارد سعيد نقل شؤون المستعمرة والإمبراطورية إلى مركز الصدارة في النظرية الأدبية والثقافية، وهي من بين النقاد الذين تأثروا بفكر سعيد، وهذه شهادة على عالمية فكر إدوارد سعيد. كما نجد "زاكريه باتاك"، و"ساسواتي سنغوبتا"، و"شامله بوركاستا" يعترفون كيف علمهن كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد أن يدرسن أدبا لا يخصهن.

ونجد أيضاً المفكر الهندي "هومى بابا" من تأثروا بإدوارد سعيد، ومن يدين كثيراً له من خلال المرجعية الفكرية في فكرة الهوية. كذلك المفكر "شيلي واليا" الذي خصص له كتاباً بعنوان "إدوارد سعيد وكتابة التاريخ"، حيث تعرض فيه إلى مجموعة من المحاور الأساسية في فكر إدوارد سعيد³.

وأهم إدوارد سعيد عدداً من الدراسات الأكاديمية التي قام بها باحثون شباب في الجامعات المصرية والتي استلهمت مقارنة إدوارد سعيد. ومن الأمثلة الحديثة لأثر كتابه الثقافة والإمبريالية،

¹ بن قسيمة صالح، (الدراسات الاستشراقية وإسهاماتها في النقد الثقافي: إدوارد سعيد نموذجاً)، مجلة جسور المعرفة، الجزائر: جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، المجلد 6، ديسمبر 2020م، العدد 4، ص 210.

² صبري حافظ، (ميراث إدوارد سعيد الثقافي)، مجلة الدراسات الفلسطينية لبنان: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، المجلد 15، صيف 2004م، العدد 59، ص 10.

³ بن قسيمة صالح، المرجع السابق، ص 211.

أن ندوة كانون الثاني/يناير 2004م التي عقدتها الجمعية المصرية للنقد الأدبي اتخذت "النقد الثقافي" موضوعاً رئيسياً لها، وهو المصطلح الذي يتزايد استعماله للتعبير عن المقاربة النقدية المستوحاة من إدوارد سعيد¹.

أنتج خطاب إدوارد سعيد النقدي الذي نشهده في أعماله رؤى جديدة للعالم، رؤى أعادت النظر في النصوص التاريخية والثقافية ومجمل المسلمات المعرفية، التي رسمت طبيعة العلاقات بين الغرب والآخرين، بل أعادت النظر حتى على مستوى النظر إلى الذات في الوعي الغربي أو الشرقي على حد سواء. وكانت أعمال إدوارد سعيد وخصوصاً تلك المتعلقة بنقد الاستشراق، نقلة ابستمولوجية نوعية في مجال الثقافة الإنسانية العامة، وساهمت بشكل كبير وفاعل في تأسيس وتدعيم الأطر العامة لرؤية نقدية باتت تسمى (النقد الثقافي)².

يُعد إدوارد سعيد من الرواد الأوائل الذين وضعوا اللبنات الأولى لحقل الدراسات ما بعد الكولونيالية، وذلك خاصة بعد صدور كتابه الأساس "الاستشراق" سنة 1978م، وكذلك كتاب "الثقافة والامبريالية" اللذان يعتبران نصاً مفتوحاً وخصباً للمفكرين الذي أتوا بعده للاستثمار فيهما من أجل الماضي قدما في بلورة حقل الدراسات الثقافية. وقد عمل إدوارد سعيد على مواجهة الثقافة الغربية بشراسة عن طريق فضح تهديداتها للأمن الثقافي لدى الشعوب العربية الإسلامية³.

¹ بن قسيمة صالح، المرجع السابق، ص 11.

² مجموعة من الأكاديميين، موسوعة الاستشراق معاودة نقد التمركز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولونيالي، دار الروافد الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 2015م، ص 502، 503.

³ إخلاف بن ايديري، المرجع السابق، ص 58.

المبحث الثاني: بين وجهتي مالك بن نبي وإدوارد سعيد في نقد الاستشراق

المطلب الأول: أوجه الاتفاق

لقد كان مالك بن نبي وإدوارد سعيد يفتقر كل منهما إلى الاستقرار في طفولته وصباه، فمالك بن نبي ولد بقسنطينة ثم نشأ في مدينة تبسة التي رحلت إليها أسرته للظروف الاستعمارية¹، ثم تبناه عمّه الأكبر وأخذه إلى قسنطينة، وبعد وفاة عمّه ونظراً للحياة البائسة والشديدة أعادته زوجة عمّه إلى أهله بتبسة.

أما إدوارد سعيد، فقد وُلد في القدس بفلسطين و ترعرع بشكل أساسي في القاهرة²، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، التي عاش فيها منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره³.

وهذا مما كان له الأثر البالغ في نشأتهما وتكوينهما وما تحفله هذه السيرة من مقومات فنية وقضايا فكرية تبرز ذلك الأثر القوي الذي تركه في هويتهما المركبة والمتحوّلة ترحالهما بين فضاءات متعددة، ومعايشتهما ثقافات وحركات مختلفة.

ومن المؤكد أنّ هذا التشابه في النشأة سيكون له الأثر في تشابه نقدهما للاستشراق.

1/ الدراسة والتكوين:

هناك تشابه كبير بينهما، حيث تلقيا تكويناً مزدوجاً نظامياً، والرابط بينهما أنه تكوين قويّ أدى إلى التشابه في منهجية الدراسة، واعتمادهم على مناهج غربية في دراسة الاستشراق، بعيداً عن الردود العاطفية، التي تتميز بها كثيراً من الدراسات الشرقية الأخرى.

¹ مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، المصدر السابق، ص 22.

² إدوارد سعيد ودانيال بارنويوم، نظائر ومفارقات: استكشاف في الموسيقى والمجتمع، المصدر السابق، ص 16.

³ الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق، ص 292.

فكل منهما درس في المدارس الأجنبية، فمالك بن نبي بدأ الدراسة أولاً كما سبق في المدرسة القرآنية في تبسة ثم المدرسة الفرنسية وبعدها انتقل للمرحلة الثانوية الفرنسية في قسنطينة، فقد كانت له الفرصة أن يتشبع من ثقافتين مختلفتين ويتكون تكوين إسلامي من طرف معلّمين أصحاب ثقافة عربية إسلامية، وتكوين غربي من طرف معلّمين ذوي الثقافة الفرنسية الغربية. ثمّ هاجر إلى فرنسا لمواصلة دراسته، ومن هؤلاء المدرسين الفرنسيين (مسيو مارتان Martin)، الذي طبع في نفسه تذوق القراءة وفن الكتابة. وأتاح له أن يقرأ كل كتب (جول فيرن Jules Verne)، وبعضاً من روايات (الرداء والسيف)¹. يقول مالك بن نبي: "ولقد قرأت مؤلفات (بييرلود Pierre Loti)، و (كلود فارير Claude Farrère)، و (L'Azyade)، و (فانقات السعادة Les Desenchantées)، و (L'homme qui assasina الرجل الذي اغتال)². كذلك كُتِب الأب "مورو" التي فتحت لمالك بن نبي باب عالم جديد يخضع فيه كل شيء إلى القياس الدقيق للكمّ والكيف"³.

أمّا إدوارد سعيد فيروي قصة بداية تسجيله في مدرسة الأطفال الأمريكيين بالقاهرة، في الفصل الخامس من مذكراته التي بعنوان "خارج المكان" والذي تحدث فيه بصراحة عن التّمايز الشديد في البنية الاجتماعية بينه وبين أقرانه في المدرسة يقول في ذلك: "انتسبت إلى مدرسة الأطفال الأمريكيين بالقاهرة، في خريف العام (1946م) بصفتي ابن رجل أعمال أمريكيّ وأنا لا أملك أدنى شعور بالانتماء إلى أمريكا"⁴.

وبعدها قرّرت أسرة إدوارد إرساله إلى أمريكا؛ لمواصلة تعليمه؛ لأنّه حاصل على الجنسيّة الأمريكيّة، وصعوبة المنهاج الإنجليزي. وفي العام 1951م انضم لمدرسة داخلية في ماساشوستس، ثمّ جامعة برنستون ثمّ جامعة هارفارد⁵.

¹ مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، المصدر نفسه، ص 48.

² المصدر نفسه، ص 64.

³ المصدر نفسه، ص 219.

⁴ إدوارد سعيد، خارج المكان، المصدر نفسه، ص 113.

⁵ صبحي حديدي، المرجع السابق، ص 106.

2/ الدافع في نقدهما للاستشراق:

من المؤكد أن سيرة الرجلان الذاتية كشاهدين على عصر الاستعمار في البلاد العربية، في الجزائر وفلسطين بالذات، عاينا هؤل الممارسات العنصرية للاستعمار الفرنسي والاحتلال الاسرائيلي والمسح المعرفي والثقافي للبلدان، تركت في ذاكرتهما انطباعات وصوراً عن الأعمال اللإنسانية للمستعمر والمحتل، ذاك الاقتلاع الممنهج للجدور التاريخية والحضارية للبلدان اللذان يرفضان أهلها الاستعباد والاستبداد والظلم والاضطهاد من مستعمر مُحتل، جاء مدججاً بالتقنية والعلم والهيمنة في تغيير البوصلة الفكرية للمجتمع، هنا يمكن القول إن عمق أفكارهما لا يقتصر على الوطن الأم، داعيان للوحدة بين الأمم التواقّة للتححرر والانعقاد في أفق أن يقتنع المستعمر بالرفض كنتيجة حتمية للثقافة الدخيلة بالقسر والإكراه.

3/ موقفهما من الاستشراق:

يحمل الرجلان سخطاً بالغاً على الاستعمار والاحتلال والمخططات الاستشراقية في تحاول تغيير العالم العربي والإسلامي من حضارته الضاربة جذورها في التاريخ إلى مجتمعات خنوعة. ولم يكن الرجلان في غفلة عن الأحداث في العالم، ودراستهما في فرنسا وأمريكا فسحت لهما المجال للمعرفة الواسعة للخطاب المهيمن والمسيطر على الآخر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالرجلان قد استلهما أفكارهما من مصادر متنوعة على نحو علم النفس وعلم الاجتماع و علوم الدين والفلسفة والتاريخ والأدب.

فكلاهما يرفض الاستشراق رفضاً قاطعاً، فالاستشراق في نظرتهما العامة هو أسلوب غربي للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه.

فكتابات المستشرقين لا تؤثر في الدراسات الأكاديمية فحسب، بل في رؤية أبناء البلدان التي تحررت من الاستعمار وما أورثه الاستعمار للفرد في هذه البلدان من نظرة دونية إلى ذاته.

لقد عرفت دائرة تفكيرهما، حقيقة الاستشراق ودوافعه، وميّزت بين ما يمكن أن نُسّميه؛ استشراق غايته الوصول إلى الحق دون أفكار مسبقة، وأمراض دفينية، وما ولده من ثقافة وحضارة،

واستشراق مُوجّه بأطروحات ومناهج تخفي أمراضاً، وتنطلق من عُقد في التعامل مع الشرق وثقافته وحضارته.

إنّ الجامع بين مالك بن نبي وإدوارد سعيد كان الإدراك العميق للافتراء المتعمد الذي مارسه الغرب على الشرق لإبقائه فريسة للدكتاتوريات العميلة المحلية، بحجة الدونية العقلانية والاندفاع الغريزي العاطفي عند الإنسان الشرقي، مقابل الرقي الفكري والحضاري عند الغربي. العنوان المستخدم للاستفادة من تلك الشّرعنة للاستلاب كان الواجب الإلهي والأخلاقي على الغرب المتحضر لفرض الوصاية على الشرق المتوحش وتهذيبه¹.

ونستطيع القول بأنّ الباحثين المسلمين يلتقون مع إدوارد في الرغبة الغربية للهيمنة على الشرق من خلال دراسته ودراسة تاريخه وثقافته وديانته².

المطلب الثاني: أوجه الاختلاف

كما كان لمالك وسعيد أوجه اتفاق فكذلك كان لهما أوجه اختلاف، ويمكن أن نبرز أهم نقاط الاختلاف فيما يلي:

- المفكر الجزائري مالك بن نبي منظرٌ للحضارة الإسلامية كرّس حياته لقراءة رموزها، وفك ألغازها وحل شفراتها لمعرفة أسرار حركتها وتوقفها، وأسباب ما وصلت إليه الأمة من تخلف وانحطاط وقابلية للاستعمار، وكان هو أحد شهود التخلف وضحايا الاستعمار، عاش في قلب الحضارة الغربية في فرنسا وينشر بالفرنسية، كان ساخطاً على الاستشراق فأصدر كتابه: "إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث" عام 1969م. بيّن فيه وجهة نظره في موضوع الاستشراق، مُركّزاً على طبقة المادحين التي خطرها أكبر بحيث يغتر بها بعض المثقفين فينقلون عنهم السموم من غير شعور.

¹ جاسر الحريش: (نظرة مالك بن نبي في ترتيب الأولويات)، بحث منشور على شبكة الأنترنت، (<https://www.al-jazirah.com>)، تاريخ الاطلاع: 2022/05/05م.

² تركي بن خالد الظفيري، المرجع السابق، ص 86.

- صنف مالك بن نبي المستشرقين إلى تصنيف زمني القدماء والمحدثون، وتصنيف اتجاهي المادحون والمشوهون، ومن حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتابتهم: فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها.

وأما إدوارد سعيد لم يصنف المستشرقين وأشار في كتابه "الاستشراق" إلى تقسيم آخر للاستشراق، فهناك استشراق قديم، وآخر حديث، وهذا الأخير ينقسم إلى استشراق كامن، واستشراق سافر¹. والملاحظ أنّ إدوارد سعيد اتجه اتجاهًا مغايرًا عن مالك بن نبي، في نقده للمستشرقين دون تمييز وتصنيف، فلا يخلو عمل استشراقيّ في رأيه من مثالب ومطبات خطيرة؛ في حين نجد بعض المستشرقين اعتبرهم مالك بن نبي من المنصفين قدّمهم إدوارد سعيد على أنّهم تواروا خلف الموضوعيّة وقدّموا سمًّا في العسل².

- مالك بن نبي اقتصر نقده على المستشرقين الفرنسيين أما إدوارد سعيد فقد شمل نقده للاستشراق البريطاني والأمريكي والفرنسي³.

- الملاحظ أنّ نقد مالك بن نبي كان مركزا على الاستشراق الذي كان موضوعه الشريعة الإسلامية، ويقتصر العالم الإسلامي تحديدا من الشرق كله، بينما إدوارد سعيد كان تركيزه على الاستشراق الكولونيالي في الشرق كله دون تحديد.

- كذلك الفرق بين إدوارد سعيد ومالك بن نبي يتلخص في أنّ الأول كان يقاوم بتفكيك الخطاب الغربي الموجه إلى المواطن الغربي أولا، ثم إلى النخب الحاكمة والبيروقراطية في الشرق، وقد أدى إدوارد سعيد تلك المهمة بعمق واحترافية هزت الأكاديميات الغربية وأفقدتها الثقة في الدفاع عن إرثها

¹ إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، المصدر السابق، ص 323-327.

² عبد القادر بوعرفة، (القضايا الكبرى في كتابات إدوارد سعيد)، مجلة دراسات استشراقية، لبنان: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، السنة: شتاء 1443هـ / 2022م، العدد 29، ص 70.

³ عبد الإله بلقزيز، نقد الثقافة الغربية في الاستشراق والمركزية الأوروبية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2017م، ص 117.

الاستشراقي والاستعماري. لم يقدم إدوارد سعيد نظرية عملية لكي يستعملها الإنسان الشرقي للوقوف على قدميه، لكن مالك بن نبي فعل ذلك¹.

- يرى إدوارد سعيد أنّ المستشرقين المحدثين جعلوا البنى الاستشراقية فرعاً من فروع المعرفة التي تنتمي بدورها الي المعتقدات العلمانية وشبه الدينية، كما أنهم مهّدوا الطريق أمام الاستشراق الحديث الذي ارتكز على أربعة عناصر:

أ- التوسّع (توسع الدراسات إلى خارج حدود العالم الإسلامي إلى الشرق الأقصى وغيره).

ب- المجابهة التاريخية بين الحضارات والتقليل من حدّتها (القدرة على التعامل التاريخي مع الثقافات غير الأوروبية قد ازدادت قوّة وأصبح الفهم الأوروبي للشرق فهمًا أكثر معقولة وذلك بالدعوة إلى حوار الحضارات).

ج- التعاطف (اضطر الغرب تحت وطأة المصالح- ومن أجل المحافظة عليها- أن يقلل من حدّة الصراع الديني وأن يتظاهر بالتعاطف مع مطالب الشعوب الشرقية ذات النزعة الانسانية).

د- التصنيف (أن تصنيفات البشر تجاوزت ما سميت ذات يوم بالأمم المقدّسة والأمم المدنّسة واختفت النظرة الدونية، وظهرت حقوق الإنسان والمساواة).

ويتضح أنّ سبب الاختلاف بين نقد إدوارد سعيد ومالك بن نبي للاستشراق يكمن في المنهج النقدي الذي يعتمد عليه كلّ منهما، فنظرة مالك بن نبي إسلامية تعتمد المنهج الإسلامي في مناقشة الاستشراق ونقده، ومنهج إدوارد سعيد يقوم على رؤية شخصية تعتمد النزعة الإنسانية والعلمانية أساساً للنقد، وليس لها خلفية دينية عقديّة.

المطلب الثالث: ما قيل عن نقدهما

كانت جدلية العلاقة بين الشرق والغرب عبر التاريخ مثار خلاف، وتأرجحت بين القبول والرفض بتدرجاتهما. وكان من تجليات هذه العلاقة الغامضة العديد من الحروب والمعارك الكبرى والاحتلالات المتبادلة بين أمم المنطقتين عبر الآلاف من السنين. ولعل أحد أهم معالم غموض وتوتر هذه العلاقة هو حركة الاستشراق.

¹ جاسر الحريش، المرجع السابق.

فتفاعل علماء شريون وغربيون، فكانت حركة فكرية مثار نقاش فكري عفيف. وتكثرت المستشرقون في العديد من المدارس الفكرية الاستشراقية التي اتهم بعضها علانية بأنها أداة استعمارية لتحقيق أهدافها. بينما ظهرت مدارس شرقية معنية بالحالة العلمية الحضارية في الشرق.

فمن باب الموضوعية العلمية، وطبيعة موضوعنا، ارتأينا أن ننقل ما قيل عن نقد مالك بن نبي، وإدوارد سعيد في نقدهما للاستشراق، ممن لم يُشاطرهما الرأي من بعض الباحثين العرب.

1/ فيرى الباحث التونسي الساسي بن محمد الضيفايوي، في "الردّ على الاستشراق في الفكر العربي المعاصر" يقول: "إن ما نستشفه من مواقف مالك بن نبي هو الوقوف على نقيض ما دعا إليه وصرّح به مرارًا في كتاباته على نحو "مثقفو المجتمع الإسلامي لم ينشئوا في ثقافتهم جهازًا للتحليل والنقد إلا ما كان ذا اتجاه تمجيد يهدف إلى إعلاء قيمة الإسلام"¹، إلا أنه لم ينجح من المنافحة والتمجيد، بل ما دعا إلى التحذير منه تورّط فيه، فقد تغنى بالماضي، وتحدّث عن مآثر العرب وانتصاراتهم وفضلهم عن الغرب، وأطال الحديث عن الحساب والرياضيات والفلك وعلم الهيئة والتشريح، فلولاهم لما كانت الحضارة الغربية ولما وصلت إلى ما هي عليه من نهضة وثورة وتطور، وتحدّث عن الجبر والحساب وأرجعهما إلى جذورهما، أليس ما حدّر منه من منافحة وتمجيد وإطراء ومدح للماضي وقع فيه الرجل دون أن يشعر؟ بل قد وظّف كل العلوم الإنسانية والصحيحة من علم نفس وعلم اجتماع وفلسفة وتاريخ في خدمة فكرته الدينية، وبالتحديد مقارنته الإسلامية وتبريرها بأدلة وبراهين من صلب ما توصلت إليه الحضارة الغربية من علوم ونهضة²، ويرى أنّ "ما يدين به العقل الإنساني إلى العقل الإسلامي من وسيلة، لا يستطيع بدونها السير والتّقدم في ميدان علوم التقدير والضبط"³، هذا من جهة التحذير من الإفراط في التمجيد الذي نهى عنه وأتى نقيضه.

أما من ناحية دعوته إلى المحافظة على الخصوصية الحضارية والثقافية والهوية والتمسك باللغة الأم، فلم ينفك الرجل يحث على ذلك ويدعو إليه، في حين أنه لم يلتزم تعلم اللغة العربية مثلاً إلا

¹ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: بسام بركة، وأحمد شعبو، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1988م، ص 78.

² ملك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، المصدر السابق، ص 25-27.

³ المصدر نفسه، ص 27.

حين سافر إلى مصر وأقام بها مدة، بل كل كتاباته باللّغة الإفرنجية، ولعل كتابه الوحيد الذي كتبه بلغة عربية "المسلم في عالم الاقتصاد" وهذا يتنافى مع ما يراه من "أنّ ازدواج اللغة يمكن أن يتولد عنه نتائج تتعارض كلياً مع الثقافة الوطنية"¹.

وإن بدت بعض مواطن النقص في مقاربات مالك بن نبي على غرار أي عمل بشري، فإنّه لا يخلو من مواطن إيجابية، إذ ركز على الإنسان باعتباره أساس التغيير، ودعا إلى التفتّح على الحضارات الأخرى، وعبر على أن التخلّف ليس إلا تخلّفاً في الزمن وغفلة عن استغلال الوقت، فالوعي بالزمن يسهم في الترقّي الحضاري، ودعا إلى دراسة التراث وإعادة بنائه حسب احتياجات العصر ونبض اللحظة والوعي بمعوقاته حتى نتحرر منها، وأكد على مواكبة اللحظة المعرفية والانفتاح على الفكر الإنساني، واستيعاب قضايا الواقع والعمل على حلها، وشدد على وجوب الاستفادة من الفكر الاستشراقي وتجاربه ودراساته الأكاديمية وأن لا نغمت حقه باعتباره يمثل حركات فكرية تتابعت في تاريخها الحديث مثل حركة الإصلاح الديني، وحركة التنوير، وحركة النهضة الأوروبية، وقد أفرزت هذه الحركات مناهج البحث العلمية وأصول الدراسات اللغوية، وطوّرت أساليب النشر والتحقيق في العالم العربي والإسلامي، وأنشأت المراكز العلمية المتخصصة، فتميزت بنزعة علمية تؤمن بالتطور الخلاق باعتباره مبدأ للحياة وسنة للوجود..².

ويمكننا القول في هذا المقام لا رداً على الأستاذ الساسي بن محمد الضيفاوي، ولكن بما نراه مناسباً في تقديرنا أنّ مالك بن نبي لم يقف على نقيض ما دعا إليه وصرّح به مراراً في كتاباته من منافحة وتمجيد وإطراء ومدح للماضي، لأنّ المقال يتطلّب تمجيد إنجازات الحضارة الشرقية والإسلامية التي أراد الاستشراق التقليل من شأنها. أمّا من ناحية دعوته إلى المحافظة على الخصوصية الحضارية والثقافية والهويّة والتمسك باللغة الأم، وأنّ كل كتابات مالك بن نبي باللّغة الإفرنجية، وأنّ كتابه الوحيد الذي كتبه بلغة عربية "المسلم في عالم الاقتصاد" وهذا يتنافى مع ما يراه من "أنّ ازدواج اللغة يمكن أن يتولد عنه نتائج تتعارض كلياً مع الثقافة الوطنية". هذا لا يُنقص من مكانته ولا قوّة نقده، بل بالعكس من ذلك، فقد كانت كتاباته باللغة الفرنسية لتسهّل قراءتها مباشرة من المستشرقين،

¹ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، المصدر السابق، ص 145.

² الساسي بن محمد الضيفاوي، المرجع السابق، ص 19، 21.

وخاصة الفرنسيين منهم أمثال "لويس ماسينيون". فجُلِّ كتاباته كانت بلسانهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فتمكّنه من اللغة الفرنسية دليلاً على اطلاعه الواسع بثقافتهم وتراثهم ومقاصد كتاباتهم.

2/ ويرى الكاتب السوري: نضال قوشحة في مقال كتبه بعنوان: "مفكرون عرب يعارضون إدوارد سعيد" يقول: "في عام 1978م نشر المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد كتابه الشهير "الاستشراق" بين فيه وجهة نظره في موضوع الاستشراق معتمداً معيار المعرفة والسلطة. ومن ثم كتابه التوأم "الثقافة والإمبريالية" عام 1993م. وهو من أكثر المفكرين العرب الذين ناهضوا حركة الاستشراق، الذي وعلى الرغم من كونه جمع طرفي المعادلة باعتباره عربياً مسيحياً يمتلك ثقافة إسلامية وبالوقت نفسه يعيش في قلب الحضارة الغربية في أميركا ويعمل وينشر بالإنجليزية في جامعاتها، لكنه مع كل ذلك كان صاحب موقف جدلي من مسألة الاستشراق¹.

يأخذ البعض على موقف إدوارد سعيد أنه خلط بين مواقف وآراء المستشرقين الأكاديمية وبين آراء بعض الرّحالة أو الموظفين في الحكومات الاستعمارية أو أهل الأدب. فيقول المستشرق الفرنسي (كلود كوهين) في ذلك منتقداً إدوارد سعيد "هو، لا يميز بالشكل الكافي بين الأدبيات الاستشراقية المبتذلة أو الصحافية، وبين بحوث العلماء الحقيقيين، لذا فإنه يرتكب أخطاء فاحشة ويقع في ظلم كبير". ويؤافقه على ذلك (بيرنارد لويس) بقوله إن سعيد "يلجأ أحياناً إلى حشر سلسلة من الكتاب في دائرة الاستشراق دون أن تكون لهم أي علاقة به. نذكر من بينهم (أديين شاتوبريان)، و(جيرار دو نيرفال) أو مدراء امبراطوريين ك (اللورد كرومر) أو غيره. لا ريب أن أعمال هؤلاء قد ساهمت في تشكيل المواقف الثقافية الغربية، ولكن لا علاقة لها إطلاقاً بالتراث الأكاديمي للاستشراق"².

عربياً ظهرت مواقف مناهضة لمذهب إدوارد سعيد في الاستشراق. منهم المفكر السوري (صادق جلال العظم) الذي كتب في مقال شهير نشر عام 1981م حمل عنوان "الاستشراق والاستشراق معكوساً" ثم أعيد نشره في كتابه الشهير "ذهنية التحريم". يقول المفكر صادق جلال العظم: "لو كان صحيحاً أن الشرق الذي يدرسه الاستشراق ليس إلا صورة مشوهة في خيال الغرب

¹ نضال قوشحة: (في نقد الاستشراق وإعادة تعريفه: مفكرون عرب يعارضون إدوارد سعيد)، بحث منشور على شبكة الأنترنت <https://alarab.co.uk>، تاريخ الاطلاع: 2022/05/10م.

² نضال قوشحة، المرجع السابق.

وتصورًا مزيّفًا في عقله، كما يكرر إدوارد سعيد في شجب صاحب الصورة والتصوير ولومه وتفريعه، أو ليس صحيحًا كذلك أن الغرب يكون بفعله هذا قد سلك سلوكًا طبيعيًا وسويًا وفقًا للمبدأ العام الذي يقول لنا إدوارد أنه يتحكم بآلية تلقي ثقافة ما لثقافة أخرى غريبة عنها؟" والعظم في هذا الموقف يؤسس على موقف إدوارد سعيد من المفكر الفرنسي (لويس ماسينيون) الذي اعتبره سعيد بأنه المستشرق الوحيد الذي فهم التراث الشرقي وكتب عنه من الداخل. موقف إدوارد سعيد من الاستشراق ومن النظرة الفلسفية المتنوعة وشمولها الماركسية تسبب في حراك مع بعض المفكرين الماركسيين. كان أبرزهم اللبناني (مهدي عامل) الذي وضع بحثًا نُشر في كتيب بعنوان "هل القلب للشرق والعقل للغرب"، "ماركس في استشراق إدوارد سعيد" نشر عام 1985م. ينتقد فيه عامل النظرة الشمولية لمفهوم الخطاب كما ورد عند إدوارد سعيد وأنه لا يرى إلا ثقافة واحدة في العالم هي الطاغية ولا يرى نقيضًا لها، ويرى (مهدي عامل) أن هذا الفكر مثالي ولا يعترف بتعدد المعرفة والثقافة، كما يضيف منتقدًا إدوارد سعيد بأنه بانتقاده للفكر الاستشراقي ظل أسيرًا له فكتب "إن القول بتأكيد مقولة الفكر الاستشراقي التقليدي التي تميز بين روحانية الشرق ومادية الغرب. ما يدل على أن النص السعيد لم ينجح في الإفلات من منطق الفكر الاستشراقي، بل ظل في نقده له، أسيره؟"¹.

ويمكن القول في هذا الصدد من الذين أخذوا موقف من إدوارد سعيد أنه خلط بين مواقف وآراء المستشرقين الأكاديمية وبين آراء بعض الرّحالة أو الموظفين في الحكومات الاستعمارية أو أهل الأدب. لأنّ هؤلاء جميعًا شوّهوا صورة العالم الشرقي، ولم يتصفوا بالمنهج العلمي من النزاهة والموضوعية، فإدوارد سعيد قام بما قام به لتوضيح الصورة الضبابية وتصحيح الصورة المشوّهة للعالم الشرقي.

3/ ويقول المفكر المصري فؤاد زكريا: "عرف العالم العربي والإسلامي، منذ وقتٍ طويل، نُقادًا للاستشراق هاجموا على أساسٍ ديني، وسعوا إلى الدفاع عن الإسلام ضدّ الصّورة المتجنّية التي رسمتها له كتابات كثيرٍ من المستشرقين... وعلى هذا يُمكن القول إنّ نقد الاستشراق قد صاحب عصر

¹ المرجع نفسه.

النهضة الفكرية الحديثة في العالم الإسلامي منذ بدايته. وكان محور هذا النقد دينياً دفاعياً، بالمعنى الذي تدلُّ عليه الكلمة الإنجليزية (Apologetic) أمّا العنصر السياسي فيه فكان غائباً في كثيرٍ من الأحيان، وإذا وُجد فقد كان هامشياً يرتدُّ في نهاية الأمر إلى خدمة الهدف الديني.

وهكذا فإن الموجة الحالية في الهجوم على الاستشراق، التي كان أهمَّ معالمها كتابٌ أحرز شهرةً واسعةً هو كتاب إدوارد سعيد، ليست جديدة في العالم العربي على الإطلاق. ولكن الجديد حقاً هو أن الطابع السياسي - الحضاري قد أصبح المحور الأساسي لهذا النقد الجديد.

أمّا الجانب الديني فقد اختفى أو توارى إلى حدٍّ لم يعد يُمثّل معه إلاً واحداً فقط من عناصر هدفٍ سياسي حضاري أوسع مدًى بكثير. وهكذا فإن بؤرة الاهتمام، في هذا النقد الجديد، قد انعكست. ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب؛ لأن الذين حملوا لواءه لم يكن يُتوقع منهم، بحكم تكوينهم الثقافي، أن يكونوا دعاةً دينيين، وإنما هم أساساً مُتفقون علمانيون، بل إن أهمهم، إدوارد سعيد، مسيحي، ومن ثمَّ كانت نظرُهم إلى الإسلام سياسيةً حضارية في المحلِّ الأول¹.

أمّا الفئة الأحدث عهداً، والتي تنقذ الاستشراق من منظورٍ علمانيٍّ مُرتكزٍ على البُعد السياسي - الحضاري، فإن قُدْرَتها على معرفة أعمال المستشرقين بصورةٍ مُباشرةٍ أعظم بكثير، ولكن يعيها في مُعظم الأحيان ضعف الإمام بالثقافة الشرقي ذاته، والافتقار إلى جذورٍ عميقة في الثقافة الإسلامية، لا بالقياس إلى النُقّاد الإسلاميين فحسب، بل بالقياس أيضاً إلى المستشرقين أنفسهم².

كما نُقد تعريف إدوارد للاستشراق بأنّه يتّجه إلى الجانب السياسي الخالص مع أهميته وفعاليتها، ولكنّه يُغفل جانباً آخر للاستشراق كالجانب الديني والاقتصادي للاستشراق، فيرتبط مفهومه للاستشراق ارتباطاً كبيرةً بالجانب الإمبريالي، وهذه النظرة الضيقة للاستشراق أثّرت بشكلٍ أو بآخر على عمله ودراسته³.

¹ فؤاد زكريا، المرجع السابق، ص 8، 9.

² فؤاد زكريا، المرجع السابق، ص 10.

³ تركي بن خالد الظفيري، المرجع السابق، ص 85.

وقد وجه وائل حلاق انتقادات كثيرة لإدوارد سعيد منها غياب التحديد التاريخي في فهم الاستشراق مع تداخلات جغرافية تستعصي على الفهم، فمعيار سعيد في اعتبار شخص ما مستشرقاً هو انتماءه لمنطقة جغرافية تعرف بـ"الغرب" على الرغم من أن الغرب يمكن أن يكون في الشرق كالليونان ولبنان ومما انتقد عليه كذلك عدم اكتراثه بالاستشراق الذي ركز على الشريعة الإسلامية¹.

ومن الردود العلمية المناهضة لأفكار إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق تتمثل بنقطتين رئيسيتين من أقوال المستشرق الفرنسي "مكسيم رودنسن"، وبعض ما قاله مفكرو اليسار العرب ضد إدوارد سعيد وهاتان النقطتان هما:

1- لا يميز إدوارد سعيد بين الكتابات الاستشراقية الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تكشف عن تزمّت، وبين جهود المستشرقين في خدمة التراث العلمي العربي، ولا سيما جهود المستشرقين الألمان.

2- إذا كان بين المستشرقين من قدّم نقداً سلبياً حول الإسلام، ورسوله فإننا نجد ابتداءً من القرن الثامن عشر نقداً ضد المسيحية، والمسيح والكنيسة، والإنجيل، والتوراة أكثر، وأخطر مما قدمه الفكر الاستشراقي حول أيّ دينٍ آخر².

كذلك ثمة مؤاخذه رئيسية على الجهد النقدي الذي عرضه إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق، يمكن أن نصلح عليها بمنهجية التعميم³.

كما وجّه لإدوارد سعيد أنه وقع في خطأ الانتقائية. فهو منذ مستهل كتابه يعتر بوضوح بأن قضيّته الأساسية في الربط بين الاستشراق والإمبريالية تنصبّ على الاستشراق الفرنسي والإنجليزي، ثم الأمريكي في العهد القريب. وهو يعترف بأهمية الاستشراق الألماني والإيطالي والهولندي والسويسري

¹ وائل حلاق، قصور الاستشراق منهج في نقد العلم الحدائثي، ترجمة: عمرو عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2019م، ص 65، 66.

² حسام محي الدين آلوسي، نقد المناهج المعاصرة لدراسة التراث الفلسفي العربي الإسلامي، ص 285. نقلاً عن لطيف نجاح شهيد القصاب، (الاستشراق في فكر إدوارد سعيد)، لبنان: مجلة دراسات استشرافية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، شتاء 2019م، العدد 17، ص 78.

³ لطيف نجاح شهيد القصاب، المرجع السابق، ص 80.

وغيره، ولكنه يرى أن أحكامه لا تنطبق على هذا النوع الأخير، الذي يستحق أن يُكتب عنه بطريقة مستقلة¹.

ليس من مقامنا أن نردّ على الكاتب والمفكر المصري الكبير فؤاد زكريا، ومن نحن؟ حتى ننقّد نقده. لكن يمكن القول أنّ ما يراه فؤاد زكريا من أنّ الكثيرين من النُقّاد من العرب والمسلمين قد جمّعوا في فئة واحدة بين المستشرقين والملحدّين، أو بين المستشرقين وأعداء الإسلام أو الأمة العربية. فمالك بن نبي كان على درايةٍ وعلمٍ بما اكتسبه من معارف لا يُستهانُ بها في دراساته من مناهج البحث العلمي، وإطلاعه الواسع وازدواجية تكوينه، فدراسته في فرنسا فسحت له المجال للمعرفة الواسعة للخطاب المهيم والمسيطر على الآخر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالرجل قد استلهم أفكاره من مصادر متنوعة على نحو علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم الدّين والفلسفة والتاريخ... فلم يجمع في فئة واحدة بين المستشرقين والملحدّين، أو بين المستشرقين وأعداء الإسلام أو الأمة العربية، فلم يغيب عليه أن هناك من المستشرقين من التزم في دراسته للإسلام والعرب وتراثهم ومآثرهم بالموضوعية والنزاهة العلمية، فقد عرفت دائرة تفكير مالك بن نبي، حقيقة الاستشراق ودوافعه، وميّزت بين ما يمكن أن نُسّميه؛ استشراق غايته الوصول إلى الحق دون أفكار مسبقة، وأمراض دفينّة، يُنظر من خلالها إلى الإسلام وما ولده من ثقافة وحضارة. وبين استشراق مُوجّه بأطروحات ومناهج تخفي أمراضاً، وتنطلق من عداوة وعُقد في التعامل مع الإسلام وثقافته وحضارته.

¹ فؤاد زكريا، المرجع السابق، ص 33.

الخاتمة

الخاتمة

من خلال هذا البحث، تبين لنا أنّ "نقد الاستشراق" قضية معقّدة وشائكة في الآن ذاته. ويبدو أنّه من غير الحكمة رمي كلّ الدرس الاستشراقيّ بجرّة قلم؛ فهذا المبحث عريق في جذوره ومتأصّل في بلاد الغرب من أوروبا قديماً إلى أمريكا حديثاً. ولقد رأينا نواتجه متباينة حين اتّخذ من المدوّنة الإسلاميّة العربيّة مادّة للرأي والنظر؛ فاختلف المستشرقون فيما تناولوه من قضايا تتصل بالحضارة العربيّة والإسلاميّة، بين تفريظ وإطراء تارة، وتقويض وازدراء تارة ثانية، وموضوعيّة وإنصاف نسيبين تارة ثالثة.

ويتسّى للدارس لأدبيّات الاستشراق الوقوف على عدم تجانس اتّجاهات المستشرقين في عمومها، إذ القوم ليسوا على قلب رجل واحد. وهذا ما يقودنا لا محالة إلى النظر بروية، وبتعقل في نتاجات دارسي شؤون الشّرق، من أهل الغرب بغية إيتاء كلّ ذي حقّ حقّه، والتصديّ الرّزين لمن تمادى أو أسرف في غيّ مبین. ألم يجيء القرآن منادياً بالحوار الطيّب، وبالجدال الحسن؟ قال تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾¹، وقال أيضاً: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالنِّبَاتِ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾².

فالفكر الاستشراقيّ عامرٌ بالغلوّ، والشطط والغرابية، وهذا ما قاد ويقود المسلمين والعرب إلى تمحيص شبهات الفكر الاستشراقي ونقدها، وإلى تقويم مسالك الباحثين الغربيين، وإلى الرّدّ على ما آلت إليه نواتج أطروحاتهم. وكلّ هذا جعل الموقف الإسلاميّ والعربيّ، يرتكز في خندق الدّفاع، تاركاً مبادرة الهجوم إلى الطرف الغربيّ.

لا ريب أنّ للمسلمين والعرب الحقّ في تقديم الرّدود المناسبة، لكلّ ما يُروّج هنا وهناك عن الإسلام والمسلمين والعرب وحضارتهم وتاريخهم. ونعم الرّدود المفحمة التي تتحاشى أسلوب التعنيف،

¹ سورة طه، 44.

² سورة النحل، 125.

وتنأى عن صيغ التعميم المححف، وترجي الحجة الدامغة، فتفرع الفرية وتبدد مظانها مصداقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾¹.

ويبدو أن الأمور تختم بخواتيم، لمعرفة نتائج كل أمر، وأما البحوث العلمية والأكاديمية فإن الخاتمة فيها تكون لاستخلاص النتائج التي يتوصل لها هذا البحث أو ذاك.

وقد توصلنا في بحثنا هذا إلى عدة نتائج من أهمها:

1- أن من بين المفكرين المهتمين بحركة الاستشراق مالك بن نبي وإدوارد سعيد اللذان حللا نتاج وأعمال المستشرقين من خلال الأمور التالية:

أ- تعريف الاستشراق وبيان مفهومه، ومن هم المستشرقون.

ب- صنّف مالك بن نبي المستشرقين إلى طبقات: هي: القدماء والمحدثون وهذا هو التصنيف الزمني.

ثم صنّفهم من حيث موقفهم من الإسلام والمسلمين فصاروا صنفين: المادحين والمنتقدين.

ج- وصنّف إدوارد سعيد الاستشراق إلى: استشراق قديم وآخر حديث.

2- ركّز مالك بن نبي على صنف المستشرقين المادحين للعرب والمسلمين وللحضارة الإسلامية باعتبارهم حسب رأيه أكثر خطراً من الناقدين، وسبب ذلك أنهم يُدخلون أفكارهم المسمومة ضمن مديحهم، ويتقبلها المسلمون دون إدراك أو وعي.

3- يرى مالك بن نبي أن الحل لتجاوز المشكلة التي وضعنا بها الاستشراق ومن بعده الاستعمار. هو أن نكون مستقلين فكرياً حتى يتحقق بعد ذلك استقلالنا السياسي والاقتصادي.

4- يرى إدوارد سعيد أن المستشرقين المحدثين مهّدوا الطريق أمام الاستشراق الحديث الذي ارتكز على أربعة عناصر:

أ- توسع الدراسات إلى خارج حدود العالم الإسلامي.

ب- القدرة على التعامل التاريخي مع الثقافات غير الأوروبية.

ج- التقليل من حدّة الصراع الديني.

د- تجاوز تصنيفات البشر وتجاوز النظرة الدونية.

¹ سورة البقرة، 111.

5- أنّ دراسة إدوارد سعيد للمنظور الاستشراقي عن الإسلام لم تكن بدافع الدفاع عن الإسلام، بل بدافع تصفيته من كل التفسيرات الخاطئة التي لحقته تاريخياً، لأن هدفه الكشف عن حقيقة الخطاب الاستشراقي وبيان تداعياته وامتداداته.

6- مالك بن نبي منظر للحضارة الإسلامية عمل جاهداً لكشف أسباب ما وصلت إليه الأمة من تخلف وانحطاط وقابلية للاستعمار، وكان ممن عايش ذلك وأصدر كتابه: "إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث" عام 1969م. الذي كشف فيه على خطر طبقة المادحين.

7- المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد من أكثر المفكرين العرب الذين ناهضوا حركة الاستشراق، الذي وعلى الرغم من كونه جمع طرفي المعادلة باعتباره عربياً مسيحياً يمتلك ثقافة إسلامية، وبالوقت نفسه يعيش في قلب الحضارة الغربية في أميركا ويعمل وينشر بالإنجليزية في جامعاتها، لكنه مع كل ذلك كان صاحب موقف جدلي من مسألة الاستشراق فأصدر كتابه الأشهر "الاستشراق" عام 1978م، وبيّن فيه وجهة نظره في موضوع الاستشراق معتمداً معيار المعرفة والسلطة.

8- تبين لنا من خلال هذا البحث أنّ مالك بن نبي وإدوارد سعيد شخصيتان كبيرتان مملّتان وموسوعيتان، ذاع صيتهما في الأوساط الفكرية العربية والعالمية، يحملان سخطاً بالغاً على الاستعمار والمخططات الاستشراقية التي تعمل على تغيير العالم الإسلامي والعربي من حضارته الضاربة جذورها في التاريخ إلى مجتمعات خنوعة.



قائمة

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

1- المصادر:

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الكتب.

- 1- إدوارد سعيد تغطية الاسلام، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2005م.
- 2- إدوارد سعيد ودانيال بارنبوم، نظائر ومفارقات: استكشاف في الموسيقى والمجتمع، تقديم آراغوزيلميان، ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2005.
- 3- إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006م.
- 4- إدوارد سعيد، الإسلام في عيون الغرب ومقالات أخرى، ترجمة: حيان الغربي، دار هدى، حمص، سوريا، (د.ط)، 2005م.
- 5- إدوارد سعيد، الإسلام والغرب، تحرير: سعيد البرغوثي، دار كنعان، دمشق، سوريا، ط1، 2014م.
- 6- إدوارد سعيد، الأنسية والنقد الديمقراطي، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.
- 7- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط4، 2014م.
- 8- إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.
- 9- إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2000م.

المصادر والمراجع

- 10- إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة، فؤاز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 2000م.
- 11- إدوارد سعيد، خيانة المثقفين النصوص الأخيرة، ترجمة: أسعد الحسين، نينوى للدراسات والنشر وتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2011م.
- 12- إدوارد سعيد، رواية للأجيال، محمد شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.
- 13- إدوارد سعيد، من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء المهجنة والاختلاف، ترجمة: محمد الجرطي، منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا، ط1، 2016م.
- 14- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1960م.
- 15- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية دار الفكر، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، ط4، 2000م.
- 16- مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1969م.
- 17- مالك بن نبي، مذكرات العفن، ترجمة: عبد الرحمان، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2007م.
- 18- مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط2، 1993م.
- 19- مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سوريا، ط2، 1984م.
- 20- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: بسّام بركة، وأحمد شعبو، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1988م.
- 21- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، 1986م.
- 22- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مكتبة الأسد، دمشق، سوريا، ط1، 2012م.

2- المراجع:

أولاً: الكتب.

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1993م، ج 10.
- 2- أبو الأعلى المودودي، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، دار القلم، الكويت، ط4، 1980م.
- 3- أحمد رضا، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1959م، ج 3.
- 4- أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر، القاهرة، ط1، 1997م.
- 5- أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2008م، ج 2.
- 6- إسماعيل علي محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، دار النشر والتوزيع، ط1، 1998م.
- 7- أنور الجندي، الإسلام في وجه التغريب: مخططات التبشير والاستشراق، دار الاعتصام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1978م.
- 8- بيل أشكروفت وآخرون، دراسات ما بعد الكولونيالية "المفاهيم الرئيسية"، ترجمة: أحمد الروبي وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2010م.
- 9- بيل أشكروفت وبال اهلواليا، إدوارد سعيد مفارقة الهوية، ترجمة: سهيل نجم، دار الكتاب العربي، دمشق، سوريا، ط1، 2002م.
- 10- تركي بن خالد الظفيري، تركي بن خالد الظفيري، الاستشراق عند إدوارد سعيد رؤية إسلامية، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، المملكة العربية السعودية، ط2، 2015م.
- 11- جمال شحيد ووليد قصاب، خطاب الحداثة في الأدب (الأصول والمرجعيات)، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2005م.
- 12- جيلالي بوبكر، البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة، (د.ط)، 2010م.
- 13- حلیم بركات، غربة الكاتب العربي، دار السنّاقی، بیروت، لبنان، ط1، 2011م.

المصادر والمراجع

- 14- خالد سعيد، إدوارد سعيد ناقد الاستشراق قراءة في فكره وتراثه، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2011م.
- 15- رودى بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، ترجمة: مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، د.ط، 2011م.
- 16- رولان بارت، النقد والمجتمع، ترجمة: فخري صالح، دار كنعان، دمشق سوريا، ط1، 2004م.
- 17- زكي ميلاد، مالك بن نبي مشكلات الحضارة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1998م.
- 31- ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، دار المدار الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ج1.
- 18- سعد آل حميد، أهداف الاستشراق ووسائله، جامعة الملك سعود، كلية التربية، قسم الثقافة الإسلامية، (د.ط)، (دن).
- 19- سمير الشيخ، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2015م.
- 20- السيد محمد الشاهد، رحلة الفكر الإسلامي من التأثر إلى التأزم، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1994م.
- 21- شكري عزيز ماضي، في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.
- 36- صالح فخري، إدوارد سعيد دراسات وترجمات، الدار العربية للعلوم، بيروت لبنان، ط1، 2009م.
- 22- عبد الأمير الأعسم، دراسات في الاستشراق، دار الفرقد، دمشق، سوريا، ط1، 2011م.
- 23- عبد السلام المسدي، قضية البنيوية دراسة ونماذج، وزارة الثقافة، تونس، ط1، 1991م.
- 24- عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، مطبعة بن مرابط، وهران، الجزائر، (د.ط)، 2014م.
- 25- عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2012م.
- 26- عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، القاهرة، ط1، 1997م.

المصادر والمراجع

- 27- عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق في وجه الاستعمار الفكري، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، (د.ط) 1995م.
- 28- عبد المنعم محمد حسنين، الاستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوته، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط2، 1977م.
- 29- عقيلة حسين، المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
- 30- علي الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1988م.
- 31- علي جريشة، أساليب الغزو الفكري، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، ط1، 1977م.
- 32- فائق مصطفى و عبد الرضا، في النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات، دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد، العراق، (د.ط)، 1989م.
- 33- فؤاد زكريا، نقد الاستشراق وأزمة الثقافة العربية المعاصرة، مؤسسة هنداوي، وندسور، المملكة المتحدة، (د.ط)، 2017م.
- 34- مازن مطبقاني، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، السعودية، (د.ط)، 1995م.
- 35- مازن مطبقاني، المغرب العربي بين الاستعمار والاستشراق، دار الريشة للنشر والتوزيع، (د.ط)، 1989م.
- 36- ماضي محمود، الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، دار الدعوة، المدينة المنورة، السعودية، ط2، 1996م.
- 37- مجموعة من الأكاديميين، موسوعة الاستشراق معاودة نقد التمركز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولونيالي، دار الروافد الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 2015م.
- 38- مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1999م.
- 39- محمد البشير مغلي، مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط1، 2002م.

المصادر والمراجع

- 40- محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط6، 1973م.
- 41- محمد السيد الجليند، الاستشراق والتبشير: قراءة تاريخية موجزة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1999م.
- 42- محمد العبد، مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاح، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 2006م.
- 43- محمد حمزة حسين الدليمي، وآخرون، الكونغرس الأمريكي دراسة تاريخية سياسية قانونية، الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2019م.
- 44- محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1983م.
- 45- محمد فاروق النبهان، الاستشراق: تعريفه، مدارسه آثاره، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، ط1، 2007م.
- 46- محمد فتح الله الزيايدي، الاستشراق: أهدافه ووسائله، دار قتيبة، بيروت، لبنان، ط2، 2002م.
- 47- محمد فتح الله الزيايدي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ط1، 1983م.
- 48- محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، دار الارشاد، بيروت، لبنان، ط1، 1969م.
- 49- محمود حمدي زفزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المنار، القاهرة، مصر، ط2، 1989م.
- 50- محمود شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، دار المدني، جدة، السعودية، (د.ط)، 1987م.
- 51- محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 1997م.
- 52- مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1976م.

المصادر والمراجع

- 53- مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1979م.
- 54- منير البعلبكي، المورد: قاموس إنجليزي عربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1985م.
- 55- منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، 1992م.
- 56- هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.
- 57- وائل حلاق، قصور الاستشراق منهج في نقد العلم الحديث، ترجمة: عمرو عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2019م.

ثانياً: المقالات والبحوث والرسائل الجامعية.

- 1- أحمد العارف، (التجربة النقدية عند إدوارد سعيد: قراءة في المنجز النقدي ما بعد الكولونيالي)، مجلة أبعاد، الجزائر: جامعة وهران 2، العدد 07، ديسمبر 2018م.
- 2- إخلاف بن ايديري، موقع إدوارد سعيد في الدراسات ما بعد الكولونيالية ودوره في تفعيل الأمن الثقافي، المجلة الجزائرية للأمن الإنساني، الجزائر: جامعة عبد الرحمان ميرة، بجاية، المجلد 7، السنة 7، جانفي 2022م، العدد 01.
- 3- آصف حسين، (المسار الفكري للاستشراق)، السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي، ترجمة: مازن مطبقاني، السنة 1992م، العدد 7.
- 4- بن قسيمة صالح، (الدراسات الاستشراقية وإسهاماتها في النقد الثقافي: إدوارد سعيد نموذجاً)، مجلة جسور المعرفة، الجزائر: جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، المجلد 6، ديسمبر 2020م، العدد 4.
- 5- جمال مقابلة وعلي عشا، (دنيوية النص الأدبي لدى إدوارد سعيد: قراءة في المصطلح)، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، الأردن: جمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية، المجلد 5، العدد 2، 2008م.

المصادر والمراجع

- 6- جميلة بوعرة: القراءة الطباقية عند إدوارد سعيد كتاب "الثقافة والإمبريالية أمودجا"، مذكرة ماستر في الأدب عربي، غير منشورة، جامعة محمد الصديق بن يحي تاسوست، جيجل: كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، 2017، 2018م.
- 7- حسن موسى محمد العقبي: مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة، مذكرة ماجستير، غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة فلسطين: كلية أصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، 2005م.
- 8- حميدة هجيرة: موقف مالك بن نبي من الاستشراق، مذكرة ماستر في الأدب والحضارة، غير منشورة، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم: كلية الأدب والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، 2016/2015م.
- 9- خالد مزاتي، (موقف مالك بن نبي من إنتاج المستشرقين: نحو وعي نهضوي جديد)، مجلة مفاهيم للدراسات الفلسفية والانسانية المعمّقة، الجزائر: جامعة زيان عاشور، الحلقة، العدد: 7، مارس 2020م.
- 10- رجا زعاترة، مجلة الهوية، (إدوارد سعيد 1935 - 2003)، قطر: لجنة متابعة قضايا التعليم العربي، 2011م.
- 11- سعدي محمد، (الاستشراق والتراث الفكري العربي الإسلامي: بين الرؤية الامبريالية والرؤية العلمية)، مجلة الإنسان والمجتمع، الجزائر: جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، العدد 2 ديسمبر 2011م.
- 12- شاعر عالم شوق، (الاستشراق: أخطر تحد للإسلام)، مجلة دراسات، بنغلاديش: الجامعة الإسلامية العالمية، شيتاغونغ، المجلد 3.
- 13- شكري النجار، (لم الاهتمام بالاستشراق)، مجلة الفكر العربي، لبنان: معهد الفكر العربي، بيروت، السنة الخامسة، 1983م، العدد 31.
- 14- صبحي حديدي، (إدوارد سعيد الهوية تعددية والمنفى حقل كريم)، مجلة فضيلة الكرم، فلسطين مؤسسة الكرم الثقافية، مركز خليل السكاكيني الثقافي، رام الله، شتاء 2004م، عدد 78.
- 15- صبري حافظ، (ميراث إدوارد سعيد الثقافي)، مجلة الدراسات الفلسطينية لبنان: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، المجلد 15، صيف 2004م، العدد 59.

المصادر والمراجع

- 16- صقر أبو فخر، (إدوارد سعيد المنفى والانشطار والهوية المضطربة)، مجلة المجلة، المملكة العربية السعودية: الرياض، ماي، جوان، 2003م، عدد 1583.
- 17- العابد ميهوب: الفكر التربوي عند مالك بن نبي، مذكرة دكتوراه في علم الاجتماع تخصص علم الاجتماع التربوية، غير منشورة، جامعة محمد خيضر، بسكرة: كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، 2013/2014م.
- 18- عبد القادر بوعرفة، (القضايا الكبرى في كتابات إدوارد سعيد)، مجلة دراسات استشراقية، لبنان: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، السنة: شتاء 1443هـ / 2022م، العدد 29.
- 19- عمران بودقردام، (المشروع الحضاري عند مالك بن نبي: رؤية تكاملية)، مجلة دراسات إسلامية، الجزائر: مركز البصيرة للبحوث والاستشارات، الجزائر، جوان 2012م، المجلد 7، العدد 2.
- 20- فخري صالح، أزمات الدراسات العربية المقارنة، مجلة الفكر والفن المعاصر القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، العدد 160، مارس 1996م.
- 21- لطيف نجاح شهيد القصاب، (الاستشراق في فكر إدوارد سعيد)، لبنان: مجلة دراسات استشراقية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، شتاء 2019م، العدد 17.
- 22- محمد الداوي، (الهوية المضطربة في خارج المكان لإدوارد سعيد)، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية، قطر: مركز العربي للأبحاث ودراسة السياسة، الدوحة المجلد 2، العدد 1، صيف 2013.
- 23- ناجي التكريتي، المستشرقون بين السلب والإيجاب، مجلة الفلسفة، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق، العدد 2، لسنة 2002م.
- 24- هالة ماضي: مفهوم الاستشراق في فكر إدوارد، مذكرة ماستر فلسفة، غير منشورة، جامعة محمد بوضياف، المسيلة: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة، 2015، 2016م.
- 25- يادكار لطيف الشهرزوري، (النقد ما بعد الاستعماري: مقارنة ثقافية في كتاب الثقافة والامبريالية لإدوارد سعيد)، مجلة الأدب العربي، العراق: جامعة صلاح الدين، أربيل، السنة الثانية عشر، العدد 3، خريف 2020م.

ثالثا: المواقع الالكترونية.

- 1- أحمد البان: (كتاب "العفن" أو انفعالات مالك بن نبي)، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://islamonline.net>)، تاريخ الاطلاع: 20/04/2022م.
- 2- أحمد شحيمط: (الاستشراق والقابلية للاستعمار في فكر مالك بن نبي)، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://www.b-sociology.com>)، تاريخ الاطلاع: 18/04/2022م.
- 3- جاسر الحريش: (نظرة مالك بن نبي في ترتيب الأولويات)، بحث منشور على شبكة الأنترنت، (<https://www.al-jazirah.com>)، تاريخ الاطلاع: 05/05/2022م.
- 4- حازم خيرى، إدوارد سعيد، "أنسية بلا ضفاف"، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://www.ahewar.org>)، تاريخ الاطلاع: 07/04/2022م.
- 5- حيدر حب الله: (الاستشراق وتاريخية التفسير القرآن)، بحث منشور على شبكة الأنترنت، (www.nosos.net)، تاريخ الاطلاع: 25/04/2022م.
- 6- الساسي بن محمد الضيفاوي: (الرد على الاستشراق في الفكر العربي المعاصر)، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، قسم الدراسات الدينية، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://www.mominoun.com>)، تاريخ الاطلاع: 27/04/2022م.
- 7- سعد الدين ابوه: (المشروع الحضاري لمالك بن نبي)، بحث منشور على شبكة الأنترنت، (<https://omran.org/ar>)، تاريخ الاطلاع: 10/05/2022م.
- 8- الطيب بن ابراهيم: (مالك بن نبي ولويس ماسينيون)، تاريخ النشر 08/11/2017م بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://www.djazairress.com>)، تاريخ الاطلاع: 27/04/2022م.
- 8- عبد الله البياري: (إدوارد سعيد: الثقافة وطن ومقاومة)، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://echajara.wordpress.com>) تاريخ الاطلاع: 09/04/2022م
- 10- عبد المنعم عجب الفيا: (الاستشراق: في نقد اطروحة ادوارد سعيد)، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://sudanile.com>)، تاريخ الاطلاع: 06/05/2022م
- 11- فيصل درّاج: (إدوارد سعيد والدعوة إلى إنسانية جديدة)، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<http://www.addustour.com>)، تاريخ الاطلاع: 07/04/2022م

المصادر والمراجع

- 12- لنور الدين بوكروح: (مالك بن نبي ولغز ماسينيون)، ترجمة عبد الحميد بن حسان، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://www.aljazairalyoum.dz>)، تاريخ الاطلاع: 2022/05/04م.
- 13- محمد جلوب الفرحان: (مالك بن نبي، الحوار الإسلامي المسيحي والدراسات الاستشراقية)، الفيلسوف: مجلة فلسفية متخصصة، العدد: 231، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://drmfarhan.wordpress.com>). تاريخ الاطلاع: 2022/05/04م.
- 14- محمد كريم الساعدي: (إدوارد سعيد وخطابات ما بعد الاستشراق)، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://portal.arid.my/ar>)، تاريخ الاطلاع: 2022/04/30م.
- 15- نضال قوشحة: (في نقد الاستشراق وإعادة تعريفه: مفكرون عرب يعارضون إدوارد سعيد)، بحث منشور على شبكة الأنترنت (<https://alarab.co.uk>)، تاريخ الاطلاع: 2022/05/10م.
- 16- ويكيبيديا على شبكة الأنترنت (<https://ar.wikipedia.org/wiki>) تاريخ الاطلاع: 2022/06/16م.

الفهرس

فهرس الآيات

الصفحة	السورة	رقمها	الآية
ج	البقرة	108	﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾
3	الحجر	73	﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾
3	الشعراء	60	﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾
99	الرعد	11	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾
66	آل عمران	144	﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾
123	طه	44	﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾
123	النحل	125	﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾
124	البقرة	111	﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

فهرس المحتويات

الصفحة	العنوان
	الإهداء
	شكر وعرفان
	الملخص
أ - و	مقدمة
الفصل الأول: تعريف الاستشراق، نشأته، أهدافه، وسائله، ونشاطاته.	
2	تمهيد
3	المبحث الأول: تعريف الاستشراق
3	المطلب الأول: تعريف الاستشراق في اللغة
4	المطلب الثاني: تعريف الاستشراق في الاصطلاح
9	المبحث الثاني: نشأة الاستشراق وتطوره
11	المبحث الثالث: أهداف الاستشراق
19	المبحث الرابع: نشاطات المستشرقين ووسائلهم
الفصل الثاني: مالك بن نبي ونقده للاستشراق	
32	المبحث الأول: مالك بن نبي حياته وتكوينه الفكري
32	المطلب الأول: مولده ونشأته وتعليمه وهجرته
34	المطلب الثاني: مكونات شخصيته ومصادر فكره
36	المطلب الثالث: مشروعه وإنتاجه الفكري، ووفاته
38	المبحث الثاني: الاستشراق عند مالك بن نبي
39	المطلب الأول: مفهوم الاستشراق وأصناف المستشرقين وتأثيرهم عند مالك بن نبي
43	المطلب الثاني: أهداف الاستشراق عند مالك بن نبي
45	المبحث الثالث: موقف مالك بن نبي من الاستشراق

الفهرس

45	المطلب الأول: تحديد المشكلة الاستشراقية ومعالجة مالك بن نبي لها
47	المطلب الثاني: نقد مالك بن نبي للاستشراق
51	المطلب الثالث: نقد مالك بن نبي للمستشرقين المدافعين والمداحين للإسلام والمسلمين والعرب والحضارة الإسلامية
54	المطلب الرابع: دور الاستشراق في تخدير العقل الإسلامي
56	المطلب الخامس: أثر إنتاج المستشرقين على واقع العالم الإسلامي
57	المطلب السادس: المستشرق لويس ماسينيون في كتاب العفن لمالك بن نبي
الفصل الثالث: إدوارد سعيد ونقده للاستشراق	
65	المبحث الأول: حياة إدوارد سعيد
65	المطلب الأول: المولد والنشأة
67	المطلب الثاني: دراسته وتكوينه
69	المطلب الثالث: وفاته ومؤلفاته
71	المبحث الثاني: الاستشراق عند إدوارد سعيد
71	المطلب الأول: مفهوم الاستشراق عند إدوارد سعيد
73	المطلب الثاني: تمثيل الشرق
75	المطلب الثالث: السلطة والمعرفة
77	المطلب الرابع: الإسلام والغرب
80	المبحث الثالث: نقد إدوارد سعيد للاستشراق
80	المطلب الأول: المنهج الدنيوي
84	المطلب الثاني: النزعة الإنسانية
89	المطلب الثالث: القراءة الطباقية
الفصل الرابع: نقد الاستشراق بين مالك بن نبي وإدوارد سعيد	
94	المبحث الأول: الدافع والمستجد والأثر في نقد الاستشراق عند مالك بن نبي وإدوارد سعيد

الفهرس

94	المطلب الأول: دوافع نقدهما للاستشراق
98	المطلب الثاني: الأفكار الجديدة في نقدهما للاستشراق
103	المطلب الثالث: أثر نقدهما للاستشراق على الساحة الفكرية
109	المبحث الثاني: بين وجهتي مالك بن نبي وإدوارد سعيد في نقد الاستشراق
109	المطلب الأول: أوجه الاتفاق
112	المطلب الثاني: أوجه الاختلاف
114	المطلب الثالث: ما قيل عن نقدهما
123	الخاتمة
127	قائمة المصادر والمراجع
138	الفهرس